رحلة بعد تعارف

وضح فيما سبق أن « شوبان » بعد فجيعته فى خطبة « ماريا » والرحلة الى لنـدن لم يستطع مواصلة ما كان يعتزمه من متابعة السفر الى هولانده فألمانيا ، وأن تدهوره الصحى اضطره للعودة الى باريس فى شهر أغسطس عام ١٨٣٧ وكان الأمر يزداد به سوءا حتى نصح له الأطباء بالسفر الى الجنوب طلبـا للدفء وحرارة الشمس .

ولما كانت العلاقة قد أصبحت وثيقة بينه وبين صديقته « جورج صاند » فقد اتفقا على أن يقوما بالرحلة معا الى جزيرة مايورقة احدى جزر البليار الاسبانية .

ولئن كانت علاقة « شوبان » و « جورج صاند » فى بداية الأمر قد اكتنفها كثير من الغموض فان أخبار رحلتهما هذه لم يخف من أمرها شيء ، بفضل كتابات «جورج صاند» ورسائل «شوبان» التى يمكن على ضوئها تفهم الرحلة اجمالا على هذا النحو :

فى العاشر من شهر نوفمبر عام ١٨٣٨ غادرت باريس « چورج صاند » تصطحب طفلهـا موريس ، وقد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، وصولانج وكانت فى العاشرة . فمروا فى طريقهم بمدينة ليون وأفنيون ونيمس وبربنيان حيث التقوا فيها بشوبان الذى كان يحاول اخفاء أمر هذه الرحلة جهد طاقته . فكتم أخبارها الا عن أوثق

أصدقائه وألصقهم بنفسه وكان من بينهم « فوتنانا » الذى لم ينس فى كل مرة كتب اليه فيها من رحلته أن يوصيه بكتمان أمرها عن الناس ، والا كانت اذاعة أخبارها تغـذية لأصحاب الشائعات فى باريس بما يشتهون • وعلى الرغم من المبالغة فى التكتم والحيطة فى اخفاء أمر هذه الرحلة فقد كان من المحال أن تجهل أندية باريس مقر أسطع نجمين للموسيقى والأدب ، وقد تغيبا عن سمائها غيبة مفاجئة ، سيما اذا كان الجميع يعرف عن « چورج صاند » أنها تسمح لنفسها بالحرية الكاملة فى حياتها الخاصة دون اكتراث بأحاديث الناس ونقدهم •

مضى الجميع فى رحلتهم وغادروا فرنسا على سفينة أقلتهم الى مدينة برشلونة ، وقد قضوا فيها بضعة أيام استمتعوا خلالها بمشاهدة المدينة وضواحيها • ثم تابعوا رحلتهم الى مدينة « پالما » عاصمة جزيرة مايورقة • وقد صفت لهم سماء الحياة الهانئة حيث استقبلتهم شمس دافئة ، ومناظر رائعة جذابة ، وجو ممتع ساحر ، مما أهاج قلم « جورج صاند » فصنفت مؤلفا خاصا بهذه الرحلة •

ولعل تأثر « شوبان » يتجلى لنا أيضا فى رسالته الى صديقه « فوتنانا » من مدينة پالما • وفيها يقول :

« اننى الآن فى پالما بين خضرة يانعة ، وظلال وارفة ، تمتد من أشـجار النخيل والأرز والصبار والزنبق والبرتقـال والليمون والرمان وهكذا ••• ان قبة السماء تبدو لامعة كالفيروز ، وصفحة البحر كأنها اللازورد • ويظهر الجبل كأنه الزبرجد • وقد سكن

الهواء فى مثل صفاء السماء والشمس تضىء النهار كله ، وترسل أشعتها الدافئة • والناس هنا يرتدون ملابس الصيف • وفى كل ليلة ، بل وفى كل ساعة ، يسمع الانسان فى جميع المواطن ومختلف الأصقاع أغنيات يحملها الجو فى مصاحبة أنغام القيثارة ••• شرفات رحيبة قد تدلت من حولها أغصان أشجار الأعناب فى تلك الأبنية التى تحمل الطراز المغربى • وتقع هذه المدينة صوب افريقية • ويمكننى أن أقول فى ايجاز أنها لحياة ممتعة ••• أرجوك أن تبلغ «پلايل» أن آلة البيان لم تصل بعد وأن مقطوعات « البريلود » ستكون لديه فى وقت قريب • ربما يتاح أن أسكن فى دير أنيق بهيج يعد موقعه من أمتع مواقع العالم • يجمع بين البحر والجبل والنخيل الى جانب كنيسة وأطلال مسجد وأشجار زيتون خلفت وراءها ألف عام من السنوات • وهكذا أنعم بالحياة فى أجمل بقاع الدنيا ، وأرى نفسى فى صحة متحسنة » •

وهكذا كانت تلك الرحلة فى بدايتها مريحة ذات تأثير طيب فى كليهما • ولكن هذه السعادة سرعان ما تغيرت ، وولت هذه الراحة وذلك النعيم • فالطبيعة بجمال مناظرها شىء ، ويسر الاقامة وتوفر المعيشة شىء آخر • فان مدينة « پالما » كما ترى « جورج صاند » لا يوجد بها فندق واحد • فكان عليهم أن يقنعوا جميعهم بالاقامة فى حجرتين متواضعتين تنقصهما جميع وسائل الراحة ، وتكتنفهما مسارب الهوام والحشرات ، وتحوطهما أماكن تعوزها الرعاية والنظافة •

واهتدوا أخيرا الى منزل صغير مؤثث ، محوط بحديقة وارفة ، تطـل على مناظر جميلة • ولا يزيد أجره فى الشهر على خمسين فرنكا • ولئن كان كل ما فيه من الأثاث والفراش بدائيا متواضع المظهر ، فقـد كان فرحهما به عظيما ، حتى أطلقـا عليـه اسم « ابن الريح » • وكان فى موقع صحى ساحر فقد بنى فى سفح جبل ، مطلا على سلسلة جبال ، كما يشرف على البحر أيضا ، مما جعلهم يقضون الأسابيع الأولى فى مثل أحلام الجنة • فهذه «جورج صاند » تقول :

« ان هنا لمنظر شاعرى متفرد • وكل ما حولنا يخلق اعتدال المزاج تحت سـماء وأى سـماء بل وأى أرض • نحن نسبح فى السعادة » •

وسرعان ما أسـدل الستار على تلك السعادة التى سبحوا فيها ، ثم تغير المنظر الى عبوس وظلمة • فقد داهمهم موسم الأمطار فى بيت كان رقيق البناء ، فلم يقدروا فيه على مقاومة الرطوبة ومغالبة الريح ••• لقد نفذ البرد القـارص من تلك الجدران الواهنة ، وأصبح البيت كأنما بنى من الجليد • وهذه هى الأمطار تهطل فى الخارج دون انقطاع أسابيع متوالية ••• فماذا يمكن أن ترى العين فى هذا المنظر ؟•• « شوبان » وقد بدأ فى السعال •• وأهل الحى على قلتهم يظنونه مصدورا فيتجنبونه ومن معه ••• ولم يكن فى هذه المنطقة طبيب يمكن التعويل عليه • بل امتد نكد الطالع الى الأدوية نفسها • فكل العقاقير التى أمكن العثور عليها

كانت تالفة ... وأعلن صاحب البيت هؤلاء السكان بوجوب مغادرة المنزل بحجة أنهم مصابون بمرض وبائى ، وذلك مع الزامهم بتطهيره وتنقيته وطلاء جدرانه وتجديد فراشه على نفقتهم .

ولم يستطيعوا الحصول على مسكن آخر بهذه المدينة ، لما كان يكتنفهم من هذه الشائعات الوبائية التى نفرت الناس من الدنو منهم وقبول جوارهم . ولكن الرحمة الالهية أكرم من أن تدع هؤلاء فى مطارح غربتهم يموتون بالعراء تحت سماء يكاد وابلها يحيل البر بحرا . فهداهم البحث والجهد الى دير قديم مهجور كان يتوارى فيه أحد اللاجئين السياسيين من الأسبان . وكان السفر يضطره الى مغادرة مسكنه فى هذا الدير فنزل عنه لشوبان ومن معه فى مقابل ألف فرنك .

وهذه المحن التى انهالت على الفنان العظيم ماذا كان خطرها على فنه وتأثيرها فيه ؟... فما لنا أن نسرد الحوادث أو نتتبع عبرها وحسب ، بل لابد من العبرة الفنية أيضا ننقب عنها ونحاول ايجادها والاحتفاظ بها . فاذا نحن نظرنا الى « شوبان » بين تلك المحن التى يلاحق بعضها بعضا فى سرعة عجيبة ، رأيناه يتعجل صديقه ارسال آلة البيان فى مكان لا تكاد تستقر فيه قدماه . ولماذا ؟... لأنه كان فى مسيس الحاجة الى تلك الآلة ليعبر بلسانها عن أشجانه ، ويخفف بأنغامها بعض آلامه . وقد أوصى صديقه هذا فى رسالته ألا يخبر الناس فى باريس بمرضه حتى لا يصبح اسمه مضغة فى أفواه المتقولين .

على أن هـذا الدير وان استثار اعجاب « شوبان » بحسن موقعه ، وتغنى بجماله الممتع فى رسائله ، فقد كان فقير الأثاث ، كما كان قديم البناء ...

واشتد عليهم غضب الشتاء فى هـذا الدير فأمطرهم أربعين يوما لم ينقطع خـلالها هطول السحاب ، وحملت شـدة البرد « شوبان » على طلب مدفأة من فرنسا . وعند وصولها مع آلة البيـان كان منظرهمـا مثـار العجب والتخوف من السلطات فى « پالما » فقد ارتابوا فى أن يكون فيهما ما يهدد حياة المدينة كلها .

وهكذا كانت الحياة فى « مايورقة » فادحة التعب على صحة « شوبان » فكان يلاحظ دائما أن جسمه آخذ فى النحول ، ووجهه ينحدر الى الشحوب والذبول يوما اثر يوم ، حتى أجمع أطباء تلك الجهة على اليأس من شفائه . أما هو فكان يتلقى هذه الصدمات بايمان عجيب ، وجأش ثابت ، وثقة لا تتزلزل .

والحقيقة أن آخر طبيب زاره أخطأ تشخيص المرض ، وتبع ذلك خطأ فى تكييف العلاج . فقـد أثبت أنه عليـل باضطراب الأعصاب والتهاب الرئتين وأنه مصاب بالسل . وتبعا لهذا فقد قرر بذل دمه ، وقصر الطعام على اللبن . وكلاهما مضاد للمصلحة الحقيقية فى علاجه على نحو ما قرره الأطباء فيما بعد . واستتبع هـذه الحال زيادة ضعفه ، ومضاعفة علته . وعلى الرغم من أن « چورج صاند » استأنت الطبيب واستمهلته فى هذا البذل المتتالى الذى قد يودى بحياة الفنان ، فقد صمم الطبيب على الاستمرار

فى هذا العـلاج الذى كان فى حقيقة الأمر مرضا ثانيـا مع المرض الأول • ومما زاد الحال سوءا أنه لم يكن يوجد من الأنعام بتلك الجهة غير الماعز ، فليس أمام المريض وقد أكره على شرب اللبن سوى أن يرضى به من المعز ، وان كان مما لا يستسيغه •

واذا كان لنا أن نتصور « شوبان » فيما آل اليه من انهيـار وضعف ، وحالة نفسية أليمة ، فليكن عمادنا قلم « جورج صاند » فقد وصفت هذه المحنة بقولها :

« لقد كان من الصعب فى الكثير من الأحيان امكان التفاهم العادى مع الفنان العظيم فى محنته • وقد وقع ما كنت أخشاه ، فسرعان ما تضاءل ثباته ، واضمحلت سكينته ، ففقد مزية الصبر • لقد احتمل آلام الجسد احتمال الرجل ، بيـد أنه سقط فريسة الأوهام والأخيلة المثيرة • وكان يخيل اليه أن الدير ملىء بالأرواح والأشباح • وكانت هذه الخواطر تعذبه وتقض مضجعه أكثر من مرض صدره • وكان يحاول أن يخفى عنى آلامه ولكن كان الأمر أكبر من أن يخفى عنى ••• وأذكر أنى عدت اليه مع طفلىّ فى احدى الليـالى بعد العاشرة ، فرأيته جالسا الى البيان ، وكانت نظراته جنونية ، وشعره مسترسلا فى غير اتساق • ولم يستطع أن يتعرفنا الا بعد مضى لحظات • على أنه لم يزد اذ ذاك على ابتسامة متكلفة عاود بعدها العزف بالبيان • لقد كانت موسيقاه تترجم عن مدى تأثره فى وحدته بالأشباح والأرواح ••• ولعمرى لقد أبدع فى هذا الحين روائع النغم ، وأطلق على تلك المقطوعات اسما يشف عن

التواضع فسماها « پريلود » . وهى جميعا مقطوعات مثالية ، تحمل فى نغمها صورا حية عبر فيها أصدق تعبير عما كان يجيش برأسه من الخواطر كيفما كان لونها . ففى احداها خيال لذلك الكاهن الذى مات ، ثم الاحتفال الرهيب بدفنه . فتراه وقد كاد بموسيقاه يصور أمام عينيك موكب الجثة ... وفى مقطوعة ثانية يطلعنا بفنه على مدى الانقباض والحزن الذى استولى على نفسه ... وفى ثالثة ينطلق من هذا الحزن ويعود الى الحياة فيرى وجهها طلقا باسما ، يرد اليه صحته وجمال عافيته فى أمل وتفاؤل ... ثم هو حين يرى مرح الطفلين بين يديه ويستقبل من بعيد أصوات القيثارة يتجاوب فيما حول الدير مع تغريد الطيور على أفنان الأشجار الندية بقطرات المطر ، وعندما يطل بنظراته على الورود الناشئة الذابلة فى حديقة الدير وقد اختفت رءوسها الصغيرة بين طبقات الثلوج البيضاء ، اذ ذاك تصدر الألحان من بين أنامله حلوة مؤثرة ، فى جمال لا يوصف ، ورشاقة لا تحد . ولكن الكثير منها مشوب بالحزن العميق . على أن المرء يحس معانى السعادة عند سماعها ، ولكنها سعادة مليئة بالألم .

ولئن كنت قد أصبت هدف الحقيقة فيما وصفت به الفنان فذلك يبدو جليا فى احدى مقطوعات « البريلود » . ففى احدى الأمسيات أبدع فيها وحيه والهامه فجاءت مؤثرة ، تنزع بخواطر النفس الى اليأس ... وان أنس فلن أنسى أننى خرجت مع طفلىّ فى أحد الأيام الى « پالما » لبعض شئوننا ، وتركنا « شوبان » وحده .

ثم انهمر المطر فى المساء بغزارة جعلت السيول تجرى على الأرض أنهارا • وفقدنا أحذيتنا فى هذا الفيضان ، وتركنا دليلنا ؛ وتهددنا خطر جسيم حتى أمضينا ست ساعات كاملة فى قطع مسافة ميل ونصف الميل • ولم نصل الى البيت الا فى نحو منتصف الليل • وقد كان تأخرنا مثار تألمنا وانزعاجنا ، فقد كنا على ثقة من أن هذا سيسبب الفزع والقلق لمريضنا المحبوب • وفى الحق لقد رأيناه فى تأثر شديد ويأس عميق • ولقد عبر عن ذلك بلغة فنه فأتم احدى مقطوعات « البريلود » التى جعلته يستغرق فى الدمع • وما كاد يرانا مقبلين حتى وقف جامدا فى مكانه يصيح بصوت متهدج « لم أكن أعتقد أنكم ستعودون على قيد الحياة » • وبعد أن عاودته السكينة رويدا رويدا ، ورأى بعينيه أثوابنا المبللة أثر فى نفسه تعرضنا للخطر الذى كنا على شفا التردى فيه • ولقد حدثنا فيما بعد أنه أثناء تغيبنا وهو فى وحدته طاف به أمر جعله فى حالة يعجزه معها التمييز بين الحقائق والأحلام • لقد وقع فريسة لفقدان الحواس • وحين أقبل على البيان أحس كأنما تميد به الأرض ، وأنه لم يعد حيا بين الأحياء • وشعر كأنه يغرق وقد احتوته الأمواج لتضمه الى أعماق البحر • ثم هو فى لون من ألوان هذه الغيبوبة يحس قطرات الماء البارد تتساقط أرسالا فوق صدره • ولما نبهت « شوبان » الى أن هذه القطرات التى أحسها فوق صدره لم تكن سوى قطرات المطر يتوالى سقوطها على سقف الدير رفض الاذعان لهذا مصمما على أنه لم يسمع شيئا قبل ذلك • وقد اشتد غضبه منى حين حاولت اقناعه بأن هذه الموسيقى لم تكن فى تعبيرها

الا توافقا حاكيا يقلد فيه ما كان يسمعه • وفى يقينى الآن أنه كان على حق فان التقليد يكون عملا لا وجود له اذا كان المرء خارج منطقة الحواس ، وان عبقرية « شوبان » كانت تحتوى فى أعماقها أسرارا مليئة بالتوافق الموسيقى ، وهى أسرار قد ولدت معه بحيث تصدر عنها تعبيراته الصادقة عن خواطره الموسيقية • وهى بهذا ليست تقليدا للعالم الخارجى • وان مقطوعة « البريلود » التى ابتكرها هذا المساء وان كانت تذكر بقطرات الأمطار المتساقطة على سقف الدير فهى على حد تعبيره قطرات الدموع التى كانت تتساقط من السماء على قلبه ••• وما أظننى حتى الآن عرفت عبقرية كعبقرية « شوبان » تحس احساسا شاعريا عميقا • وان آلة البيان لتتحدث تحت أنامله حديثا خالدا ، حتى ان المقطوعة القصيرة التى لا تستغرق فى تدوينها أكثر من مساحة نصف صحيفة لتحمل فى طياتها الفن المعجز الذى لايمكن وصف مايحتويه من عمق الشاعرية ودقة التعبير • وليس « شوبان » فى حاجة الى الاستعانة بالوسائل المادية الضخمة ، فله فى عبقريته وحدها غنى عنها جميعا • فلم يكن يحتاج الى استخدام أنواع النفير والبوق لكى يشعر النفوس بمؤثرات الفزع والعنف ، لأن فى مقدوره أن يوقظ هذه المشاعر كلها دون التجاء الى هذه الآلات • وظنى أن الناس لم يعرفوه الى الآن حق المعرفة ، ولم يصلوا به بصفة عامة الى التقدير الذى يستحقه والمكانة التى يستوجبها • وان على العالم أولا أن يتقدم خطوات واسعة نحو السمو بالذوق والوعى الموسيقى حتى يتيسر له أن يدرك أسرار الفن فى موسيقى شوبان ••• » •

ان فقدان أسباب الراحـة فى هـذه الجزيرة قد أثار متاعب « شوبان » حتى فقد الغبطة التى كانت تغمر نفسه عند استنشاق زهور البرتقـال ، أو رؤية عناقيد الكرم وهى تثقل الأغصان ، أو الاستماع الى الأغانى المغربية ترسلها أفواه الرعاة فى غدوهم ورواحهم ، كما كان ذلك منه عند بداية الأمر • وقد ألحت عليه العلة فأصبح سريع التهيج ، مرهف الحس ، يتأثر لأقل بادرة وأتفه أمر ، حتى ليدمى قلبه منظر غصن مائل أو وردة ملتوية أو فراشة فقدت ساقها •

ولما لم يعد المقام محتملا على هذه الصورة فقد اعتزم الجميع انهاء هذه الرحلة والعودة الى فرنسا • وانتهزوا فرصـة اعتدال الجو فى يوم من منتصف فبراير عام ١٨٣٩ فغادروا « پالما » على ظهر سفينة كانت هى وسيلة النقل الوحيدة فى هذه المنطقة • وكانت خاتمة البلايا فى مناظر هـذه الرحلة أن يحاط هؤلاء المسافرين فى هذه السفينة بمائة من الخنازير كان يراد نقلها من هذه الجزيرة الى احدى الجهات •

وقد بدأوا يرون وجه الدنيا باسما مرة أخرى حين وصلوا الى برشلونة ، واستقبلهم قنصل فرنسا بما خفف عنهم فداحة هذه الآلام المبرحة • وأمكن لشوبان أن يتلقى بعض المشورات الطبية • وطاب لهم المقام بهذه المدينة فاستقروا فيها أسبوعا بأحد فنادقها • وبعثت «جورج ساند» برسالة من هذه المدينة فى الخامس عشر من فبراير الى احدى صديقاتها فى باريس تقول :

« عزيزتى المحبوبة ! أنا الآن فى برشلونة • واذا شاء لى الله

أن أغادرها فلن تطأ قدماى الأرض الأسبانية أبدا . ان هذه البلاد لا توافقنى بحال ... اقرئى على « جرزيمالا » من هذه الرسالة ما يخص « شوبان » على ألا يذيعه لأحد . وانه بعد أن أكد لنا الطبيب ما يطمئن الخواطر على صحتـه فلم تبق من حاجـة الى ازعاج أسرته » .

ثم أبحروا من برشلونة حتى انتهوا الى مارسيليا وهم لا يكادون يتمالكون أنفسهم من نشوة سرورهم بالعودة الى أرض فرنسا . ولندع « جورج صاند » تتحدث عن هذا فى احدى رسائلها فتقول :

« وأخيرا ياعزيزتى أنا فى فرنسا ... ولو أن الرحلة امتدت بنا شهرا واحدا من الاقامة فى أسبانيا لكان فى ذلك هلاكى وهلاك « شوبان » . أما هو فمن الجنون والخوف ، وأما أنا فمن الضيق والغضب . لقد جرحوا أعمق مكان فى سويداء قلبى يوم اخترقوا برءوس الابر أمام ناظرى جسم المحبوب العزيز وهو على فراش مرضه . ولن أغتفر ذلك لهم ما حييت . واذا كتبت عنهم فانى سأكتب فى قسوة ومرارة » .

ثم نرى « جورج صاند » أيضا تقدم وصفا لنفسية « شوبان » فى هذه الرحلة فتقول :

« ليس « شوبان » هـذا سوى ملاك طاهر . ولقد ابتكر ، فى مرضه بجزيرة مايورقة ذلك المرض الذى كاد يسلمه الى الموت ، ألحانا صادرة من أعماق الفردوس . وشاء القدر أن أكون أنا وحدى التى تعودت أن أراه محلقا فى آفاق السماء فكان من المتعذر علىّ

أن أتبين ما اذا كان لا يزال فى عداد الأحياء أو هو فى قائمة الراحلين عن الدنيـا • بل هو نفسه يتعـذر عليه أن يدرك فى أى كوكب يعيش » •

وحدث فى مارس أثناء وجودهم بمارسيليا أن أعلن نبأ وفاة المغنى « أدولف نوريت Adolphe Nourrit » وكان يتمتع بأعظم صوت من نوع الصادح (التينور) وقد انتحر فى ايطاليا بقذف نفسه من احـدى النوافذ حزنا على سـقوط سمعته • فأسرع « شوبان » الى الكنيسـة حيث جلس الى الأرغن يبتكر بعـزفه ألحانا كانت فى وقعها المؤثر آخر ما يهديه فنان الى ذكرى صديقه الفنـان • وعزف مقطوعة « النجوم » من موسيقى شـوبرت وهى الأنشودة التى طالما تعود جمهور مارسيليا سماعها من المغنى الراحل •

وامتـدت اقامة « شوبان » مع أسرة « جورج صـاند » فى مارسيليا من أوائل مارس الى أوائل مايو • وكان أكبر همه فى هذين الشهرين معالجة مرضـه على أساس طبى صحيح لم يتـوافر له فى رحلته • وقد أصاب طبيبه الدكتور « كوفير » فى ذلك هدف النجاح وقرر أنه مصاب بنزلة شـعبية حادة • وتدل الرسـائل الواردة من « شوبان » ومن « جورج صاند » التى بعثا بها من مارسيليـا على أن الحالة الصحية للفنـان كانت تسير من حسن الى أحسن •

وبلغ به التحسن الصحى خلال تلك الأسابيع التى قضاها فى مارسيليا أنه استطاع مرافقة « جورج صاند » وطفليها فى رحلة

الى جنوا بايطاليا ، حيث نصح له الأطبـاء بقضاء بضعة أسابيـع فى الجنوب • وما لبثوا أن عادوا منها الى مارسيليا بعد رحلة بحرية شاقة فى العشرين من مايو • وبعد أيام قلائل غادروها الى قصر « نوهان » •

وفى قصر « نوهان » هذا توفرت لهم أسباب الراحة والهناءة • وكانت فى أعينهم بالنسبة الى مايورقة وأيامهـا العصيبة كالجنة بالنسبة الى الجحيم الأليم • وهنـالك ما هو أعظم من ذلك شأنا وأجل أثرا • فهذا هو طبيب ممتاز يمت الى « جورج صاند » بود سابق وصداقة قديمة • وهاهو ذا الطبيب يفحص الحالة الطبية لشوبان ويدرس مشكلة مرضه دراسة عميقة يخرج منها بنتيجة سارة كان وقعهـا على الأسماع أجمل من وقع بشرى العيـد • ان « شوبان » ليس مصدورا وليس مريضا بالسل • ويتفق هـذا الطبيب مع ماقرره زميله طبيب مارسيليا من أن مرض الفنان انما هو نزلة شعبية حادة ولا يعوزه سوى الراحة والاستجمام • وقد أصبح أمر المعالجة والدواء فى متناول اليد بعد تلك الكارثة التى اجتمع عليها بذل الدم ولبن الماعز •

وفى هذه الفترة أمكن لشوبان أن ينعم بحياة عائلية منتظمـة كان فيها بالنسبة الى «چورج صاند» كأنه ثالث ثلاثة بين أطفالها ••• كانت هى تنصرف الى تعليم أطفالها والعناية بتربيتهم • وبعد أن تتناول الأسرة وجبة الغداء فى الخلاء يعزف « شوبان » ألحانه فى الأصيل ، حتى يبادر الى فراش نومـه فى الوقت الذى يبكر فيه الطفلان

الى سريريهما • ثم تتبعهما « جورج صاند » بعـد اعداد دروس الغد •

وقد تركت هذه الحياة لشوبان فراغا يملؤه بفنه ، وصحة يتوجها بروائع مبتكراته • فها هو يكتب من « نوهان » الى صديقه « فونتانا » قائلا :

« اننى ألحن هنا الآن سوناتة من سلم سى بيمول مينير وهى تحتوى على المارش الذى سبق أن بعثت اليك به • وتتألف من جزء « الليجرو » ثم جزء « سكرزو Scherzo » • وبعد المارش يجرى حوار بين اليد اليمنى واليد اليسرى فى موسيقى لحنية خاليـة من تعدد التصويت • وقد لحنت غير ذلك مقطوعة « نوكتورن » جديدة وهى صول ماچير ، وستنشر فى نفس الوقت مع مثيلتهـا صول مينـير اذا كنت تذكـرها • وقد انتهيت كذلك من أربع مقطوعات « مازوركة » : واحدة انتهيت منها فى « پالمـا » وهى مى مينير والثلاث الأخريات تمت هنا وهى سى ماچير ، ولا بيمول ماچير ، ودو دييز مينير • وأعتقد أنها جميلة • ومهما يكن من شىء فذلك هو شعورى نحوها ، وهو شعور الأبوين نحو صغارهما حين تتقدم بهما السن • ولا يشغلنى شىء ، عدا ما ذكرت ، الا القيـام بتصحيح طبعة پاريس لموسيقى باخ • وان كنت أقوم بذلك لنفسى وارضاءا لضميرى • وانى لا أقتصر فى ذلك على تصحيح الأخطاء الكتابية التى يمكن أن تكون قد وقعت فى « الكليشيهات » بل أزيد على ذلك القيام بتصحيح الأخطاء التى كان يمكن أن يقوم

فردریك شوپان امام مکتبه
بریشهٔ چورچ صاند

بتصحيحها باخ نفسه لو أتيحت له مراجعة هذه الطبعة . ولا أزعم لنفسى أننى أكثر منهم تفهما لباخ ، ولكن يدفعنى الى ذلك اعتقادى بأن هذا هو الذى يجب أن يكون » .

وكانت « جورج صاند » تصغى بمجامع فؤادها ومشاعر نفسها الى موسيقى « شوپان » ، وهى تنطلق كل يوم مع نسمات الأصيل . وكان يعزف لها وحدها بلغة تجيد فهمها ، وهى التى كانت تجيد الفهم الصحيح للغة الموسيقى .

وفى الحق لقد كان لهاتين الشخصيتين أفق التقت فيه حياة كل منهما ، وامتزجت بالأخرى ، ولاسيما فى هذه الساعات التى سمت بهما الى سماء الفن الخالد والحياة الروحية العالية التى يشرفان منها على الجمال والصفاء .

ولقد آمنت « جورج صاند » أن صديقها العبقرى فنان من طراز منقطع النظير . وآمنت كذلك بأن « شوپان » انسان روحى ليس فى محاسن العالم المادى ما يجتذب فؤاده اليه ، وانما كان يعيش أبدا فى أحلامه ، بعيدا بروحه عن روابط هذا العالم المادية . وكان يختص آلة البيان بكل أسرار قلبه وخوالج شعوره .

وهكذا كانت أيام « نوهان » راحة واستجماما ومدرسة للتأليف والانتاج والتصحيح والعزف ... حياة هى الحب والفن والجمال ... ولكن شخصية « شوپان » الغنية بجميع كنوز الفن والتى تقود ركب المدنية فى التقدم الموسيقى لابد أن تضيق بها الاقامة بالريف ، كما لا تستغنى عنها عاصمة دنيا الفن والجمال .

فلتشد الرحال الى باريس .....

العودة إلى باريس

فى خريف عام ١٨٣٩ اعتزم « شوبان » و « جورج صاند » مغادرة قصر نوهان الريفى الجميل بعد شهور قضياها فى غبطة وسعادة وهناءة . أما اليوم فيدفعه للعودة الى باريس استئناف حياته الفنية فيها ، والتدريس لتلاميذه بها . أما هى فيدفعها الى تلك المدينة شعورها بأنها أصبحت غير قادرة وحدها على المضى فى تربية طفليها . فهى الآن فى حاجة الى من يعاونها على مواصلة تعليمهما ، فقدظهر استعداد «موريس» وميله لفن التصوير فكان لزاما أن يلتمس له فى باريس ما يشبع موهبته ويغذى استعداده . ولم تكن حاجة شقيقته « صولانج » بأقل من ذلك ، وهى فى حياتها النفسية تبدو صعبة المأخذ ، عنيدة غير سلسة القياد . وقد كلفا أصدقاءهما قبل مغادرة نوهان أن يبحثوا لهما عن مسكنين متقاربين ، وأوضح كل منهما مايجب أن يتوافر فى مسكنه .

فمما اشترطه « شوبان » ألا يكون الى جوار مسكنه حداد يفسد بالمطرقة والسندان ما ترسله أنامله على أوتار البيان . وفى جهة لا يكتنفها الدخان ولا تفعمها الروائح المؤذية . وأن تكون نوافذ غرفته صوب الجنوب . وتوفر الجمال والراحة فى درج السلم .

وقد وصلتهما أنباء سارة . فقد أمكن العثور على مسكن لشوبان فى شارع ترونشيت رقم ٥ وآخر لچورج صاند

مؤلف من جناحين صغيرين تتوسطهما حديقة بشارع بيجال رقم ١٦ • ولئن سر « شوبان » بهذا التوفيق ، وبقرب العودة الى باريس فقد أراد قبل سفره اليها أن يستوثق من توفر مجملات مسكنه • فمن ذلك أن يكون لون أوراق الجدران أخضر داكنا أو رماديا فاتحا ، وأن يكون من اللون البراق على غرار مسكنه السابق فى تلك المدينة • وأن تكون ستائر المدخل من اللون الرمادى ، وستائر البهو حمراء • وأن تفرش الغرف بأجود أنواع السجاد الثمينة على أن يكون نقشه خلوا من التقاسيم المتسعة ، مع توافر آلتين من البيان من مصانع « پلايل الكبرى » احداهما له والأخرى لتلاميذه • ولم ينس « شوبان » قبل مغادرة نوهان أن يفكر فى أمر هندامه ومظهر زيه • فهو بطبيعته أنيق فى ملبسه ، لا يرضى من جمال المظهر بما دون الكمال • لذلك فقد كتب الى صديقه « فوتتانا » بباريس يقول :

« لقد فاتنى أن أرجوك أن تشترى من « ديبون » بشارع شوسيه دى أنطين قبعة ، وهو على علم بالمقياس المناسب لى • وأود أن تكون خفيفة غير مبالغ فى شكلها لأنى لا أعلم أي الأنواع تلبسون الآن • وفى نفس الوقت أرجوك أن تمر بدوت ريمون الترزى الخاص بى فى البوليڤار لتطلب اليه أن يعد لى على عجل حلتين من اللون الرمادى الداكن الذى يصلح للشتاء • على أن يكونا من نوع فخم غير مخطط ولا متعدد الألوان ••• وان دوت ريمون سيسر حين يعلم أننى قادم الى باريس • فأرجو أيضا أن تكلفه اعداد صديرى بسيط من المخمل الأسود فى تخطيط خفيف

لا يلفت الأنظار • وليكن لونا بسيطا ولكنه فاخر • فاذا لم يتوافر لديه مخمل من النوع الجيد فلا بأس بصنعه من قماش آخر يجمع بين البساطة والجمال . دون أن يبالغ فى فتحته » •

وفى الثانى والعشرين من أكتوبر رحل « شوبان » و « جورج صاند » الى باريس • ولم يكد يستقر بكل منهما المقام فى مسكنه الجديد بعيدا عن صاحبه حتى شعر كل منهما برغبته فى أن يعيش مع الآخر • ولم يكن ذلك مستغربا منهما ، فقد تلازما عاما كاملا اعتادا فيه الحياة معا ، وأصبحت الفرقة تسلبهما كثيرا من الراحة والاستقرار ، وبخاصة أن « شوبان » فى حاجة الى من يسهر على راحته ، ويراقب تنظيم شئونه • فما أسرع ما غادر مسكنه الى مسكن صاحبته فأقام بالدور الأول من أحد الجناحين • وابتدأت حياتهما تسير فى مجراها الطبيعى •

ففى الصباح يبدأ موريس وصولانج فى تلقى دروسهما على أيدى مدرسيهما • بينما يقوم « شوبان » بالقاء دروسه الموسيقية على تلاميذه • وربما كان يستغرق فى الدرس الواحد ساعة كاملة ، وقد يمتد به الوقت الى ماهو أطول من ذلك • وكثيرا مايقوم الموسيقار نفسه بالعزف لتدريب تلاميذه وتوجيههم ، حتى لقد عزف لاحدى تلميذاته أربع عشرة مقطوعة من « البريلود » و « الفوج » من موسيقى « باخ » من ذاكرته وحفظه ، غير مستعين فى ذلك بقراءة التدوين (النوتة) • ولما أبدت الفتاة دهشتها واعجابها بتلك القدرة المعجزة ابتسم « شوبان » فى تواضع وقال : « ان هذا فن لا يمكن أن ينسى » •

وقد خصصا الساعات التى بعد الظهر لأعمالهما الفنية . وفى المساء يلتقى الجميع عند « جورج صاند » حيث يتناولون الطعام معا ، وقد يشترك معهم بعض المقربين من أصدقائهما . وكان بهو الاستقبال يبدو فى لون أبيض مشوب بسمرة خفيفة ، مزدانا بعدد وافر من الأصص الصينية الجميلة المليئة بأندر الأزهار وأجملها ، تجاوبا مع هواية « شوبان » وارضاء لذوقه . وقد حليت الجدران بمجموعة قيمة من الصور الفنية الرائعة .

وفى أخريات عام ١٨٣٩ قدم الى باريس الموسيقار الألمانى «موشيليس» من لندن . وكان من أغلى أمانيه أن يتعرف الى الموسيقار البولونى الذى طبقت شهرته الآفاق ، وأصبح اسمه يموج فى القارة بعاطر الثناء على عبقريته . وقد تم لقاؤهما على خير حال فى مجلس ضمهما معا ، وتبادلا فيه دواعى الود والمجاملة التى توثقت عراها حين دعاهما الملك « لويس فيليب » الى قصره فى « سان كلو » فى التاسع والعشرين من نوفمبر لاحياء حفل فى بلاطه . وفى هذا الحفل بدأ « شوبان » يعزف أمام الأسرة المالكة احدى مقطوعاته « النوكتورن » ، تلتها مقطوعة أخرى من دراسات البيان ، فكان مثار الاعجاب وموضع التقدير فى فنه وفى أدائه . وبعد أن أدى زميله الألمانى بعض المقطوعات عزفا معا مشتركين بأربع أيد « سوناته » لشوبان (وقيل لموتسارت) . وقد غمرهما الملك بفاخر الهدايا ، وأنعم عليهما بما يرفع مكانة فنهما .

وانه لمن آيات العبقرية أن تفرض شخصية « شوبان » نفسها فرضا على كل من يصادفها أو يتصل بها ولو لأمد قصير . وهكذا

يضيف « موشيليس » اسمه الى قائمة المعترفين بعظمة هذا الفنان اذ يقول فى رسالة له الى قرينته :

« ان مظهر « شوبان » يساير موسيقاه فى توافق وانسجام ، فكلاهما رقيق وعاطفى . لقد عزف أمامى استجابة لرغبتى . والآن فقط أستطيع أن أدرك كنه موسيقاه ، وأن أفسر هيام الجنس اللطيف بعزفه ... وما كنت أحسب ، ولا أظن أحدا يعتقد ، أن « شوبان » الفياض بأعمق الاحساسات يتمتع فى شمائله بجانب فكاهى . فقد رأيته نشطا مرحا حلو الدعابة يحسن التقليد والمحاكاة . فقد مثل « بكسيس » و « لست » وثالثا أحدب » .

ولعل القارىء لا ينسى ما ألمعنا اليه من أن استعداد « شوبان » فى القدرة على التقليد والمحاكاة يرجع الى عهد الطفولة والحياة المدرسية الأولى . ولم تفارقه هذه الهواية حتى فى عهد رجولته واقامته فى باريس . ولا أدل على ذلك مما كتبه أيضا زميله المدرس القديم جوزيف نوفاكفسكى (Joseph Nowakowski) فقد قال :

« عندما زرت « شوبان » فى باريس رجوته أن يقوم لى بالتعارف الى « كالكبرنر » و « لست » و « بكسيس » . وسرعان ما أجابنى « شوبان » بقوله لست فى مسيس الحاجة الى مثل هذا الجهد . انتظر قليلا ، سأعرضهم عليك واحدا واحدا . ثم أخذ « شوبان » مجلسه من البيان منتحلا جلسة « لست » وطريقة عزفه ، وقد غير ملامح وجهه ليقنعنى أنه « لست » بعينه . وثنى بتقليد « بكسيس » ، ثم « كالكبرنر » . وفى الليلة التالية قصدت مع

« شوبان » الى المسرح • ولما أخذت مكانى من المقصورة غادرنى لوقت قصير • وتلفت فاذا « بكسيس » جالس الى جانبى • فاستولى على الضحك ، وأخذت أربت على كتفه فى غير تكلف ، اعتقادا منى أنه « شوبان » • وقلت له كفى تقليدا • فأخذ جارى يحملق فى وجهى وقد أخذته الدهشة ، وتلفت الى هذا الذى يمازحه على غير معرفة سابقة ، وهو لا يدرى ماذا يقول لى • وشاءت العناية أن تنقذنى فأقبل « شوبان » مسرعا الىّ ، وقد ضحك من أعماق قلبه أمام هذا الخطأ الذى جعلنى فى موقف لا أحسد عليه • على أنه استطاع بلباقة أن يخرجنى من هذا المأزق ويسوى المشكلة فى رقة وأدب » •

وقد كان الموسيقار « لست » يتمتع بصداقة وثيقة العرى مع « شوبان » • ولم تؤثر فيها عوامل المنافسة وحب التفرد بالشهرة والصيت البعيد ، مما يحدث غالبا بين أبناء المهنة الواحدة • بل كانا فوق كل اعتبار فنانين متآخيين يقدر كل منهما عبقرية زميله ويعجب بفنه • ولم يكن « لست » ينقم على « شوبان » قيامه فى المجتمعات بتقليد حركاته وعزفه وملامحه ، بل على النقيض كان يستقبل ذلك كله بسرور ومرح • وقد يروعك أن تعلم أن أمر التآلف والتوافق بينهما كاد يجعل من شخصيهما شخصا واحدا • وانظر الى التواضع الذى يذهب فيه الاخلاص كل مذهب وتنمحى من طريقه الأثرة وحب الذات • وحدث مرة فى أحد المجتمعات أن طلب الى « شوبان » أن يعزف بالبيان • ولما أخذ مكانه تبين أن تلك الآلة تنقصها مفاتيح القدمين (البدال) ، واعتذرت ربة المنزل

بأنها قد بعثت بها للاصلاح . فنهض « لست » فى الحال وقال لشوبان : قم أنت بالعزف وسأجلس عند قدميك لأقوم بوظيفة هذه المفاتيح أثناء عزفك . وقد قام بذلك فعلا ، فدل على سمو روح الفنان وحسن تواضعه .

ومهما كانت الصداقة تجمع بينهما بأوثق رباط وأقوى صلة من المودة ، فان « شوبان » لم يكن يقبل التسامح مع صديقه اذا كان ذلك على حساب فنه .

طلب مرة الى « لست » فى أحد المجتمعات أن يقوم بالعزف . فنهض ليؤدى احدى مقطوعات « شوبان » . وأخذ يفتن فيها ويزيد عليها . فما لبث « شوبان » أن بدت عليه أمارات القلق وعدم الرضا . حتى اذا تمادى به الأمر وضاق ذرعا ، قام الى صاحبه وقال له : أرجوك أيها الصديق العزيز اذا قمت بعزف احدى مقطوعاتى تكريما لى أن تؤديها كما كتبتها أو أن تعزف شيئا آخر . فقال « لست » : اذا كان الأمر كذلك فلتجلس ولتعزف أنت بنفسك . قال « شوبان » : حبا وكرامة . ولما أخذ مكانه من البيان تصادف أن حامت فراشة فأطفأت أحد المصابيح . ولما هموا باشعاله ثانية قال « شوبان » : كلا بل أطفئوا هذه المصابيح كلها ويكفينى ضوء القمر . وكان له ما أراد . ثم مضى « شوبان » يعزف من مبتكراته ساعة كاملة ، فكان فى موسيقاه نورا يفوق تلك الأنوار المطفأة ، وكانت سحرا عجيبا يأخذ بمجامع القلوب . ولقد ترك المستمعين اليه مذهولين ، ونقلهم من هذه الأرض ومادتها الى عالم شفاف علوى ، كله فتنة وجمال . وبعد نهاية

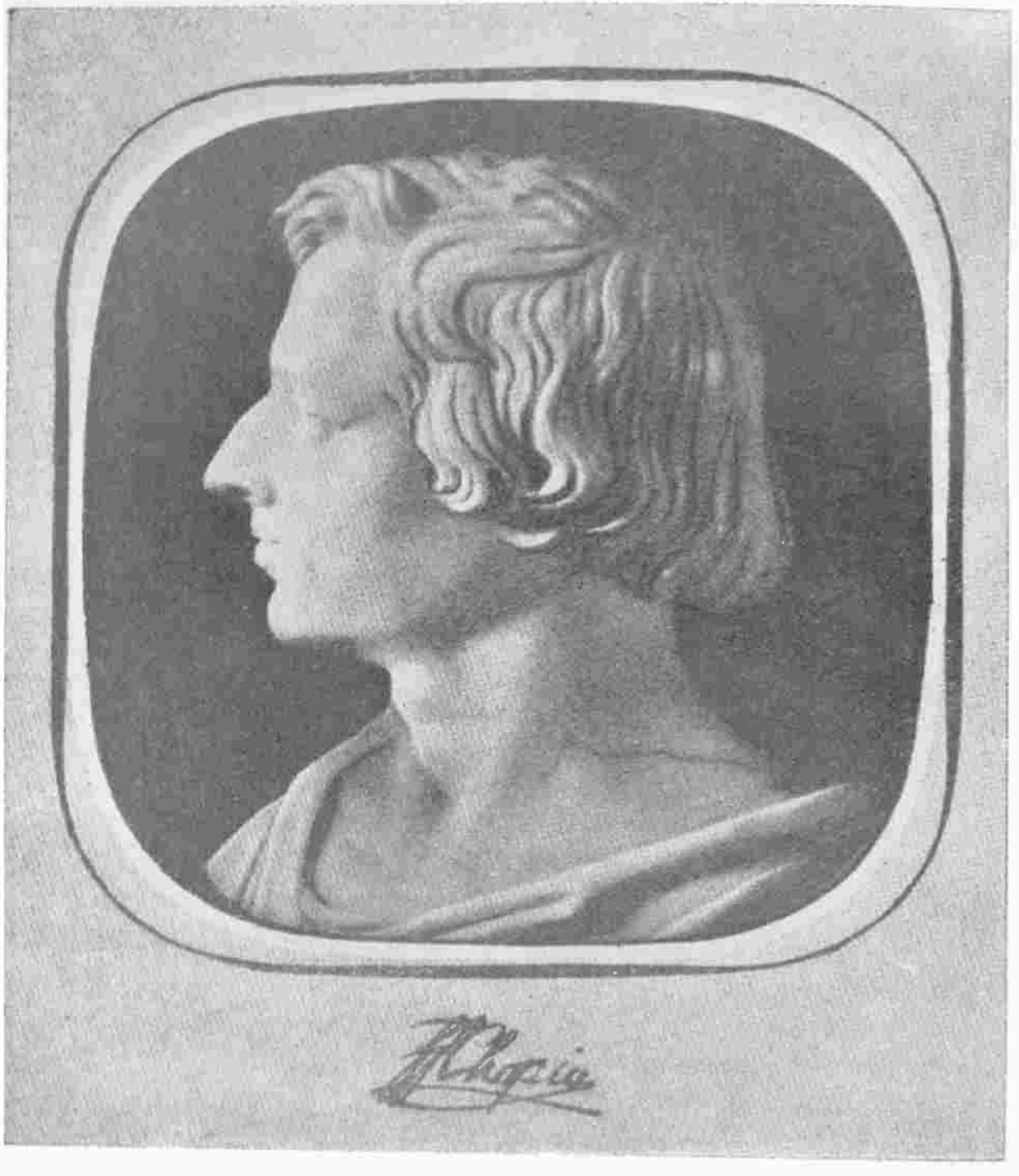

فردريك شوپان (حوالى عام ١٨٤٠)

العزف أقبل عليه « لست » يضمه الى صدره والدموع تترقرق فى عينيه وهو يقول : أى والله ياصديقى ، انك لعلى حق . ان آثار عبقرية كعبقريتك يجب ألا تمس . وأقل تعديل فيها يسىء اليها . انك لشاعر حقيقى » . فأجابه « شوبان » فى ثقة العالم وتواضع الفنان ووفاء الصديق : « ليس الأمر كذلك ، وانما لكل منا طريقته الفنية فأنت تعلم ، كما نعلم علم اليقين ، أن ليس فى هـذا العـالم كله من له مثل مقدرتك على عزف موسيقى « بيتهوفن » أو « ويبر » . ولهذا فانى أرغب اليك فى أن تسمعنا جزء الأداچيو من سوناتة دو دييز مينير لبيتهوفن » وقد أجاب « لست » صديقه الى رغبته وقام بعزف ما أراد .

ولقد كان استدعاء الملك « لويس فيليب » لشوبان للعزف مع الموسيقار « موشيليس » فى بلاطه من بواعث همته ومن الحوافز التى ضـاعفت نشاطه ، وحملته على بذل الجهود تلو الجهود فى زيادة انتاجه ، وانماء ثروة ابتكاره ، مما جعل السنوات الأولى من عودته الى باريس جديرة بأن تضاف الى أنبه صحائف عظمته ، وأن تحتسب فى قمـة مجده . ففى عام ١٨٤٠ ظهر له الكثير من مؤلفاته الموسيقية ، نخص من بينها مقطوعة « البالاد » الثانية وقطعة « سكرزو » الثالثة . و « سوناته سى بيمول مينير » . وهذه الأخيرة قد فازت بأكبر نصيب من الاطراء والتمجيد . وهى التى قال الشاعر « هاينى » عند سماعها : « ان شـوبان هو رفائيل البيان » .

وفى السادس والعشرين من ابريل عام ١٨٤١ أحيى « شوبان »

حفلا فى صالة « پلايل » ندع وصفه للموسيقار « لست » فقد نشر فى جريدة « الغازيت موزيكال » الباريسية أن الجمهور كان يتألف من سيدات الطبقة الراقية وشبان بلغوا غاية الاناقة وفنانين يشار اليهم بالبنان ومن لا يمكن حصرهم من أثرياء ونبلاء ، والجميع يتزاحمون على الجلوس فى أقرب مكان للعزف • ثم قال :

« ان شهرة شوبان الذائعة لم يصبها أى فتور خلال مرضه ؛ ولقد توقف النقد تماما وكأن أصحابه قد انتقلوا الى عالم آخر ؛ وقد أنس الجمهور الى رؤيته فاستقبله كأن لم يكن قد تغيب عنه ؛ وجميع الألسنة رطبة بالثناء » •

وبعد عشرة شهور من موعد ذلك الحفل أقام « شوبان » حفلا آخر فى باريس فى نفس الصالة الأولى ، وقد أفاضت أقلام الكتاب عليه بآيات التمجيد • واحتوى البرنامج أحدث مؤلفات « شوبان » وهى مقطوعة « البالاد » الثالثة ، و « بريلود » رى بيمول وابتكارات صول بيمول ماچير • وتلا ذلك غناء من ڤياردو جارشيا (Viardot Garcia) ثم عزف بالكمان الجهير (الفيولنسل) من « فرانخوم » الموسيقار البارع •

وكان حفل عام ١٨٤١ هو الحفل الأول بعد مضى تسع سنوات لم يظهر فيها « شوبان » فى الحفلات العامة • وقد عاد بعد الحفل الثانى الى احتجابه ، فهو على ما بيناه لا يميل بطبيعته الى عرض موسيقاه بنفسه على الجماهير • انما يحس بميله الى العزف على البيان حين تدفعه رغبة الجماعات فى المجالس الخاصة التى يجد

فى أفرادها الثقافة العالية والتقـدير السليم • يقول « برليوز » فى ذلك :

« ان الشيء الوحيد الذى كان يدفع « شوبان » الى البيان هو وجود دائرة صغيرة من المستمعين المنتخبين الذين يلمس فيهم الرغبة الأكيـدة والشوق الملح الى استماعه • واذن فأي عجب كنت تسمع !!! » •

أما مقطوعة « البالاد » الثالثة فقد كانت وصـفا موسيقيا لأسطورة « المرأة السويسرية » • وتتلخص فى أن صيادا التقى بفتاة فى احدى الغابات فأحبها وعاهدها على ألا ينظر الى فتاة سواها • فقبلت منه هذا الحب ، ومضت فى سبيلها • وعند عودته الى بيته قريبا من البحيرات السويسرية رأى على حافة الماء فتاة أخرى اجتذبت نظره اليها بجمالها وفتنتها ، فقصد اليها ، واذا هى فتاته الأولى التى عاهدها على الاخلاص لهـا • انها جنية هـذه البحيرة • وقد عاقبته على خيانته ، فاجتذبته الى القاع وأخذت روحـه تولول مـع طيور الشاطىء ، بينما أخـذت هى ترقص على الماء •

أما مقطوعة « البالاد » الرابعة فتصور اسطورة « بودرى » وموجزها أن بطريقا لتوانيا أرسل أبناءه الى العالم باحثين عن حظهم بعد أن زودهم بطرق ثلاثة أوضحها لهم : أولها الانخراط فى سلك الجيش للذهاب فى صحبة القائد الذى يهاجم الروس والرجوع بغنـائم السيوف • وثانيها الذهـاب فى صحبة القوة المهاجمة

للألمان ، والعودة بغنائم الثياب والكهرمان • وثالثها وكوب الجواد الى بولونيا للحصول على شيء من ثروتها ممثلا فى شخص امرأة • وقد اجتذب الطريق الثالث هؤلاء الأبناء الثلاثة فذهبوا جميعا الى الخارج ، وعاد كل بقرينة بولونية •

هذا اللون من القصص الخيالى أو الوجدانى هو ما يمكن أن يفهم من لغة الموسيقى • وان الهاتف بها والمرسل لأنغامها قد آمن برسالته الفنية وبقدرته فيها على الافصاح والتعبير بما تعجز عنه الكلمات والجمل والحروف • على أن الناس يختلفون فى الفهم وطريقة تفسير الجمل الموسيقية واستيعاب المعانى الروحية فيها • فالموسيقى تمنح الجميع تعبيرا صادقا مكنون العواطف وخفى المشاعر ، وتصف للأحياء قصص الحياة كلها على تباين صورها وتعدد ألوانها • ومن ميزات فضلها أنها لغة غير محدودة ولا مقيدة بالمساحات ، ولا خاضعة لرسوم القواميس • لذلك ينفسح فيها مجال التعبير المرن • وكأنها تخاطب كل فرد على حدة وتناجيه بقصة لا تناجى بها الآخر • ومن اعجازها ارتباط حوادثها وانطباقها على حقائق الوجود ، وتقلبات الدهر ، وتغير الناس والزمان • ولكل أن يقول فى نفسه : انها تخاطبنى وحدى ولو كانت هذه الأنغام ألفاظا وحروفا لكشفت عن مكنون صدرى للناس •

هكذا كانت موسيقى « شوبان » تتحدث فى كل مقطوعة بقصة تختلف عليها الأفهام ، وان كانت تلتقى عند معنى واحد هو صدق الاعراب عن مجموعة معينة من الأحاسيس والمشاعر التى جعلته فى عداد أقطاب الفن الخالدين •

انقطع « شوبان » عن الحفلات العامة ، وأقبل على التدريس حرصا على اذاعة رسالته وتثبيتها نقشا على صدور تلاميذه الذين كثر اقبالهم عليه بقدر عظم شهرته وعلو مكانته وذيوع قيمة مؤلفاته • وكان يستشعر المتعة والسرور فى اختيار تلاميذه واختبارهم وطول الأناة معهم ، على غير ما كان عليه أنداده من عظماء الفن كبيتهوفن وموتسارت وغيرهما ممن كانوا يضنون بأوقاتهم أن تضيع بين حوار التلاميذ واعداد الدروس • وما كان لهم أن يتقبلوا مهنة التدريس الا لكسب القوت ، لا عن استخفاف بالمهنة ، ولكن عبقريتهم ملكت عليهم فراغ الزمن وزاحمتهم حتى لم تدع لهم سبيلا الى الراحة والهدوء • فان أقبل « شوبان » على التعليم بنفس راضية فانما هى صناعة والده تركزت فى فطرته منذ نعومة أظفاره • وكان شرط « شوبان » على تلاميذه الاجتهاد وتوافر الاستعداد ، ولهم عليه لطف المعاملة وحسن التوجيه • وقد استمر ذلك الى العهد الأخير حين وهنت أعصابه وضاق صدره الرحب فأصبح قليل الاحتمال سريع التأثر لأيسر الأمور • فكان ينفد احتماله ، ويضيق صدره ، وتثور ثائرته على الطالب الذى لا يسايره فى سرعة الفهم • وكان أحيانا يقذف بأوراق التدوين والحامل معا ، وحينئذ تقوى يده الضعيفة على تحطيم الأقلام بل المقاعد واسماعه نابى الألفاظ ومرها • ثم يعقب هذا الغضب الهائج دموع تترقرق فى عينيه ، رحمة بتلميذه ، وعطفا عليه ، وتعبيرا عن الندم والأسف • وكان أول ما يوجه اليه تلميذه أن ينقله الى أسلوبه فى رقة العزف ولين التوقيع على مفاتيح البيان • فاذا اشتد طالب فى عزفه انتهره

غاضبا ، وربما قال له : لكأنى أسمع ذئبا يعوى أو ثورا يخور . وكان لا يقبل التدريس لأحد مالم يكن قد قطع فى دراسته الموسيقية ومهارة الأداء مرحلة غير قصيرة . وكان فى أول ما يبدأ به العناية باستقلال الأصابع والاهتمام بعزف السلالم والتمرينات المبنية عليها . وكان لشوبان تلاميذ ينتمون الى مختلف الجاليات المقيمة فى باريس ، ومن بينهم عدد غير قليل من مواطنيه البولونيين .

وقد اعتزم « شوبان » أن يسجل كل خبرته وما اكتسبه من المران فى العزف ، ومن تجاريبه خلال تلك السنوات التى كان فيها مؤلفا وعازفا ومعلما ومصححا ، وذلك بوضع كتاب يجمع شتات هذه النواحى ، على أن يكون خير موجه ومرشد للمبادىء والمنتهى وللمعلم والمتعلم على السواء . وقد بدأ محاولته بكتابة بعض فصول من هذا المؤلف قبل مرضه ، ولكن شاءت الأقدار أن يحرم العالم هذا المصنف فقد مزق « شوبان » ماكتبه قبل موته بوقت قصير .

ولكن اذا كان « شوبان » لم يتم له تأليف ما أراد فقد قال كلمة هى شعار كل تأليف صادق لأسلوب العزف وقيمة الأداء السليم ... كلمة كأنها لحن خالد ... بل هى اللحن الخالد فى كلمة ... « اعزف كما تشعر وسيكون عزفك اذن جيدا » . وكان « شوبان » اذا استمع الى تلميذ يعزف بمهارة قال له : « لا ينقصك اذن الا أن تضع روحك فى فنك » .

وتحدث مرة عن أحد تلاميذه فى لهجة الآسف فقال انه على

الرغم من وفرة اجتهاده ، وأنه لا يسأم مواصلة الدرس ، ورغم تحليه بكثير من الصفات التى تجعل منه فنانا ممتازا فانه ينقصه أهم الخصائص التى تعده لبلوغ هذه المنزلة ، أعنى فقدان قدرة التعبير عن الشعور .

وكان اذا استمع الى أحد تلاميذه الفرنسيين وقد أجاد احدى مقطوعاته البولونية بمايثير استحسان الجميع قال انه حسن حقا لولا أنه تنقصه الروح البولونية .

وان « شوبان » لعلى حق ، فان هذه المقطوعات البولونية من تأليفه كان طابعها البولونى يشق على غيره التعبير عنه والوصول الى صميم روحه وعميق تأثيره ...

وهؤلاء هم الأقطاب الثلاثة « لست » و « هيللر » و « شوبان » ضمهم مجلس فى قصر النبيـــل « پلاتر » وخاضوا فى أحاديثهم الفنية ، حتى انتهى بهم المطاف الى « القومية فى الموسيقى » . فقرر « شـــوبان » أنه من العسير على انسان مالم يولد فى بولونيا ، ولم يتنسم هواء مروجها ، ولم تبهره خضرة حقولها ، ولم يلمس قلبه شعور أهلها ، أن يؤدى الأداء الصادق لأغانيها . فانعقد اجماع الحاضرين على أن يتبارى الثـــلاثة فى أداء احـــدى مقطوعات « شوبان » وهى « المازوركة » المسماة « ان بولونيا لم تخذل بعد » ، ليتبينوا مدى الصواب فيما ذهب اليه . فبدأ « لست » بعزفها كاملة . وقام على أثره « هيللر » وأداها أيضا . فكان كل منهما مخالفا فى عزفه طريقة صاحبه وأسلوبه . ثم نهض « شوبان » وأدى

المقطوعة بالروح التى يؤمن بها والتى ألهمها يوم تصنيفها . فما كاد ينتهى من عزفها حتى أقبل عليه زميلاه مقرين بأنهما كانا بعيدين غاية البعد عن روح هذه المقطوعة وأنه ليس فى مقدورهما التعبير عنها .

ولئن كان المقدرون لموسيقى « شوبان » يتزايدون كثرة على ممر الأعوام فانهم لا يزالون على قلة نسبية . وأقل من هذا القليل من يستطيع أن يؤدى موسيقاه كما ينبغى أن تؤدى وكما يجب أن تكون .

وكان لشوبان خصائص يمتاز بها أسلوبه فى العزف . وصفات يتفرد بها دون سواه . فمن ذلك أن تظل يده اليسرى محافظة فى هدوء على الايقاع المنتظم بينما تتحرك يده اليمنى فى حرية وانطلاق كما يشاء ، سرعة وابطاء ، على أن تتلاقى اليمنى مع اليسرى فى سرعة وخفة حركة . فكان ما يسلبه من زمن احدى العلامات الموسيقية يمنحه للتى تليها بحيث يستوفيان معا زمنهما المقدر . وكان عدم ارتباطه والتزامه بقيود زمن الايقاع يجعل لعزفه تأثيرا بالغا وميزة فنية غير مشارك فيها . وكان يصنع هذا بخاصة فى « المازوركة » و « النوكتورن » فيخيل لك أن اللحن قارب يطفو على صفحة ماء البحر الخضم .

ويقول لست : « ان شوبان كان أول من أقدم على هذا الأسلوب فى أداء مصنفاته بما أكسبه لونا خاصا فى التعبير » .

وهكذا كان يجتهد « شوبان » فى أن يلقن هذا الأسلوب لتلاميذه ولاسيما مواطنيه البولونيين منهم .

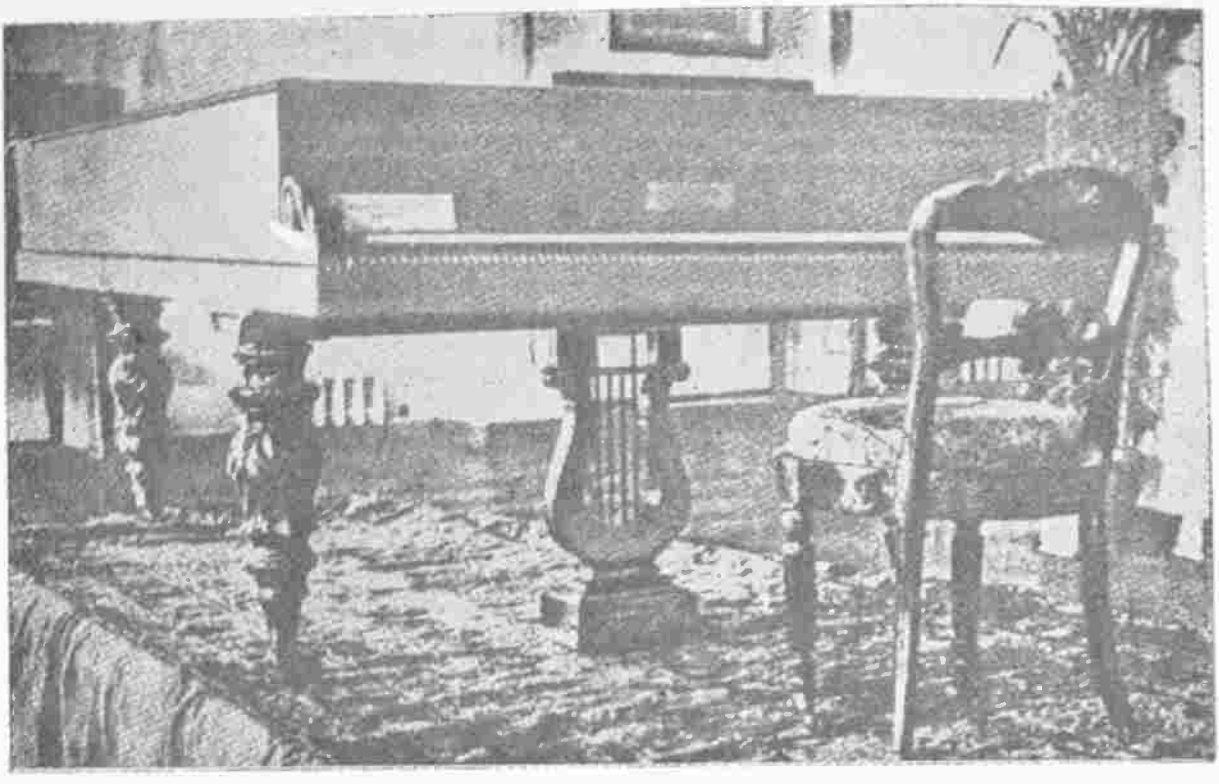

بيان فردريك شوپان (محفوظ بمتحف وارسو)

واذا كان الحظ لم يسعدنا بأداء « شوبان » فى تسجيلات من الأشرطة أو الاسطوانات ، واذا لم يكن قد أدركه عصر التسجيل ، مما يجعل من غير اليسير على موسيقىَ معاصر امكان محاكاة أسلوبه وبلوغ القمة فى تفهم روحه ، فانه لما يقرب الى هذه الغاية الاستماع الى موسيقى « شوبان » فى التسجيلات التى قام بها أساطين الموسيقيين الذين تشربوا مدرسته ، وتوفروا على دراسة مذهبه ، ورسخت أقدامهم فى ادراك مراميه . ولعلهم أقرب من سواهم الى الرواية والنقل عمن عاصروا « شوبان » واستمعوا اليه . فهم بذلك أقرب تمثيلا وأصدق تصويرا للموسيقى والأداء عند شوبان .

كان فناننا العبقرى يؤثر العزف بطراز معين من آلة البيان ومن مصانع خاصة يفضلها على سواها . فكان اذا دعى الى المجتمعات الراقية فى بعض الليالى أرسل اليها بيانا من النوع الذى يؤثره اذا تبين عدم توافره فى مكان هذا الحفل .

وكان الفن فى نظر « شوبان » هبة سماوية طاهرة ، يترفع بها عن أن تكون وسيلة لجمع الثروة الضخمة . ولم تكن الموسيقى عنده بقرة حلوبا ولكنها كانت فى نظره ابنة السماء . فما أجدرها بأن ترتفع على المادة وتتنزه عن الأغراض .

لقد رفض أن يقبل تعليم أبناء الأثرياء ممن كل مميزاتهم المال مع خلوهم من الموهبة الفنية والاستعداد الفطرى . وعجيب منه أن يصنع ذلك بنفسه ويرفض الثروة وقد ارتمت على أعتابه

ملتمسة رضاه ، على الرغم من أنه لم يعد يتلقى من أبويه معونة مالية منذ عهد بعيد ، وبالرغم من ضرورته الى الانفاق فى حياة كان يميل فيها الى البذخ والاسراف ، وقد كان مضيافا سخيا يزاحم النبلاء والأثرياء فى اقامة الولائم والحفلات . وهذا الذى كان يرفض الثروة من الأغنياء غير ذوى الاستعداد كان يضع نفسه رفنه رهنا لخدمة الموهوبين ولو كانوا فقراء ، حتى لقد يمد بعضهم بالكتب والمقطوعات الموسيقية وبالنقود أحيانا . لهذا كان موضع حبهم واجلالهم واحترامهم . ولم يكن الأمر بينه وبينهم دروسا تحفظ وأجورا تدفع ، بل كانت صلة روحية وثيقة تجعله دائب الاهتمام بشئونهم والحرص على مستقبلهم .

لم يكن « شـوبان » يستكثر من عدد تلاميذه فلم يزيدوا فى الأغلب على أربعة أو خمسة فى وقت واحد ، ليتمكن من القيام بالأمانة فى تعليمهم والتفرغ لتوجيههم ، وليحقق فى انتاجه ما هو الأحسن والأصلح لا ماهو الأكثر والأكبر .

ولقد يأخذك العجب حين تعلم أن كثيرين وكثيرين رغبوا فى أن يحصلوا ولو على مجرد الانتماء الى تلمذته بصفة فخرية على أن يقدموا من النفقات ما يرضيه دون أن يكلف نفسه عناء التدريس لهم . وقد رفض فى اباء الفنان الكريم أن يتقبل هذه العروض على حساب شهرته ، وأن يخون أمانة الفن الخالد من أجل مادة زائلة .

وقد زاد على هذه الصفات الأدبية العليا ما امتاز به من الاخلاص لفنه والعطف على طلبته ، فلم يعتذر اليهم عن مواصلة الدرس حين

تزايدت به العلة وألح عليه المرض . فلو أنك رأيته فى أحد هذه الدروس ، رأيت « شوبان » العظيم مضطجعا على أريكة وأمامه آلة بيان غير التى أمام تلميذه أو تلميذته ، فاذا استمع الى توقيع خاطىء أو أداء لم يحز رضاه نهض فأدى ذلك الموضع بعينه من اللحن على ما يجب أن يكون ، ثم عاد الى اضطجاعه ...

هـذه هى الأخـلاق فى الموسيقى ، وتلك هو الموسـيقى فى الأخلاق . فمن لنا بالفنان الذى تكون أخلاقه أنغاما وأنغامه صفات عالية وسجايا فاضلة !!!

بداية النهاية

فى هذه المرحلة من حياة « شوبان » كان الأطباء قد نصحوا له بالتحفظ لصحته وأن يحيى حياة منتظمة . وقد شق عليه أن يعمل بنصح الأطباء كما شق عليه من قبل أن يأخذ بهذه النصيحة يوم قدمتها اليه أسرة خطيبته « ماريا » عربونا للزوجية المنشودة . وأنى له أن ينظم حياته فى باريس الصاخبة المليئة بمجتمعات هو روحها ومتعتها ، والتى كان يملؤها بساحر فنه الى ساعات متأخرة من الليل . فلم يكن بد مما ليس منه بد ...

هذه هى أعراض ذات الرئة التى بدت طلائعها تظهر منذ عام ١٨٤٠ أخذت تشتد عليه يوما فى اثر يوم مما جعل هذا العام فى حياته عام البداية فى أفول النجم الساطع ، وذبول الزهرة اليانعة . ومن ثم أخذ الفنان العظيم يشكو شدة الأرق الذى سبب له الكثير من النوبات العصبية وانتيابه بالأوهام المحزنة . وأصبح خطر المرض هذه المرة أمرا واقعيا لا يختلف عليه طبيبان . وكان « شوبان » قد اعتاد أن يقضى صيف كل عام فى قصر « نوهان » فيجد فى سكونه ترفيها من عبء الشتاء المضنى فى باريس . كما كان يلقى فيه الراحة الكاملة والجو الصافى والطبيعة الهادئة بما يخفف عنه ثقل الداء العضال ويشرح صدره لمعاودة التأليف .

وفى عام ١٨٤٢ فجع بوفاة صديقه جان ماتوسينسكى

وهو من أصدقاء طفولته وزملاء صباه الأقربين . وقد قضى نحبه في باريس متأثرا بذات الرئة . وكان لفقده رنة حزن في قلب « شوبان » وأثر عميق في نفسه .

وأبى القدر الا أن يضاعف همه ، ويتبع المصيبة بأخرى أشد منها . فقد تمت الفجيعة الكبرى بوفاة والده المحبوب ، فاستل الموت بذلك أعز الناس عليه وأحبهم اليه . وكانت وفاته بوارسو في الثامن من مايو عام ١٨٤٤ . وقد وقع هذا النبأ على الفنان المريض موقع الصاعقة . وكان أبلغ ما يحز في نفسه أنه لم يستطع توديع والده الوداع الأخير .

على أنه لم يتمكن حتى من الكتابة الى والدته الحزينة وشقيقاته المنكوبات ليمزج دمعه بدموعهم ، ويعزى بألمه آلامهن لفقد أحب رجل اليه واليهن . فلقد كانت الكارثة من الحسرة والأسى بما لم يقو معه على الكتابة فيها ، سيما وهو المريض الذى اجتمع عليه مرض يهدم جسمه ورزء يحطم قلبه . فاحتملت « جورج صاند » هذا العبء وقامت بهذا الواجب عنه . فكتبت هى الى والدته رسالة تعزية في فقد قرينها الراحل .

وقد بلغت الفاجعتان في الصديق والوالد من نفس « شوبان » ما لا يحتمله الوصف من مرارة اللوعة ، وفداحة الخطب ، حتى تضاعفت به العلة وزاد ما كان ينتابه من الوساوس والأوهام . وقد ذكرت « جورج صاند » أن شبحى الفقيدين كانا يلازمانه حيثما توجه وأينما سار ، الى جانب ما كان يتمثله من الصور الرهيبة

والأرواح المفزعة والأوهام المريبة فى يقظته ومنامه . وكثيرا ما كانت تضطرها هذه الحالة الأليمة الى ملازمته لتطرد هذه الأشباح عنه وترد اليه سكينته واطمئنانه .

وما زالت العلة تزداد عنفا وسوءا من شهر الى آخر ، وهو يتعرض فى كل وقت لنوبات السعال الحاد بما هدّ من كيانه وأضعف من بنيانه .

وحتى فى هذه الفترة القاسية المريرة لم تخنه عبقريته فأنتج فيها من آثاره الفنية الخالدة « البولونيز مصنف رقم ٥٣ » . وأنشودة « مصنف رقم ٥٧ » . وسوناته سى منير « مصنف رقم ٥٨ » . ومقطوعات مازوركة « مصنفا ٥٩ ، ٦٣ » ومقطوعة باركارولا « مصنف رقم ٦٠ » . وبولونيز فانتازى « مصنف رقم ٦١ » . وسوناتة صول مينير للبيان والكمان الجهير (الفيولنسل) « مصنف رقم ٦٥ » .

وهذه المقطوعات وان كانت فياضة بأروع جمال موسيقى ، وأسمى خيال شاعرى ، فى ابداع نادر ، وتصور ساحر ، فهى مليئة بالحزن العميق ، والشعور الجريح ، اللذين كان الفنان يعانى آلامهما .

وقد بدا لجورج صاند أن تدعو شقيقته الكبرى « لويزا » الى نوهان فلعل فى قربها منه ما يخفف عنه قليلا مما يعانيه . وكان « شوبان » يشك فى النتيجة التى ترجوها ، ولكنها صممت على تنفيذ فكرتها . وبعثت بدعوة رقيقة تدعو بها شقيقته وزوجها تستقدمهما الى نوهان . ومن هذه الرسالة قولها :

« وانك ستجدين طفلى العزيز مريضا جدا ، وقد تبدلت حاله . ولكن لا تنزعجى كثيرا على صحته ، فان حالته العامة لم تتغير فى هذه السنوات الست الماضية التى كنت أتعهده خلالها يوميا . فهو كل صباح ينتابه سعال حاد . ويتعرض لنوبتين أو ثلاث فى كل شتاء تستغرق كل واحدة منها يومين أو ثلاثة . ويساوره مرض عصبى من حين الى حين » .

وقد ختمت رسالتها هذه بالترحيب بقدومها ، وبأنها متفائلة بتقدم صحته اذا ما رآها الى جانبه .

وقد لبت شقيقته هذه الدعوة ، وقدمت الى نوهان يصحبها زوجها ، فتحقق أمل « جورج صاند » من تقدم صحة « شوبان » وتحسن حالته النفسية ، وأصبح فى قدرته مواجهة الحيـاة مرة أخرى . وقد عادت شقيقته وقرينها بعد أن قضيا الى جانبه شهر أغسطس بأكمله . وبلغ من تحسن صحة «شوبان» أن كتبت «جورج صاند » الى شقيقته بعد رحيلها تقول لها : « اننى أؤكد لك أنك خير طبيب زاره حتى الآن » .

ثم ألحت عليه العلة حتى أصبح ميئوسا من شفائه . وعلى رغم ما كان يملأ نفسه من أدب الفنان وسمو ذوقه مما كان يحمله على أن يلح على « جورج صاند » راجيا ألا تتقيد به فى حياتها ، وألا تحرم نفسها المتعة بمشاهدة المسارح وحضور المجتمعات ، فقد صبرت على ملازمته عاما بعد عام . ولكن ما كان لها أخيرا الا أن تحس ثقل العبء فى القيام على مريض طالت علته ، وأصبح

ليله غير مرجو الصباح • ولئن كانت « جورج صاند » قد أحبت الفنان وهو فى نضارة شبابه ، وفى أوج عظمته الفنية ، وفى جمال صحته المشرق فانها اليوم خليقة أن تفقد الدوافع النفسية والحوافز العاطفية مما أنهك من قواها ، وأمال ركن احتمالها • ولعلها أفصحت بحضرة المريض عن شىء من تبرمها ، فكان مريرا ، وأمرّ من المرض نفسه أن يحس الفنان المريض مثل هذا التبرم وهو الذى تغنيه الاشارة عن العبارة •

وهذه البذور البغيضة التى بدأت تنمو فى صدر «جورج صاند» كانت تتجاوب معها بذور تنمو فى صدر آخر ، هى أشد أثرا ، وأمر ثمرا ، وربما كانت هى الحد الفاصل فى الموضوع كله • ذلك أن ولدها « موريس » أصبح يافعا يدرك ما يجرى حوله من شئون الحياة فيحكم لها وعليها • ولئن راقه فى فجر صباه أن يرى والدته سعيدة فى حياتها مع « شوبان » الفنان العظيم الذى طبقت شهرته الآفاق ، وقد كان خليقا اذ ذاك أن يشعر نحوه بمحبة واجلال فان الأمر بعد رحلة مايورقة أخذ يتبدل رويدا رويدا ، وانجابت الغشاوة التى كانت تحجب عينيه عن شبح الحقيقة المجردة • فقد آن له أن يرى فى « شوبان » رجلا أجنبيا ، لا تربطهم به صلة من قرابة ، ولا وشيجة من وطن • وانما هو لاجىء ، مريض ، طالت علته ، كما طالت اقامته • وكان مما أثار الحفيظة ، وأجج نار الحقد غيرته المتوقدة التى ما تكاد تهدأ حتى يوقظها ما كان يراه من تعلق أمه بهذا الغريب • وعظمى المصاب فى نظره أن يرى ذلك الغريب يحتل هذا الوضع الشاذ من أسرة لا يمت اليها

بصلة ، ويحتل مركز الوالد ، ويتمتع مع الأسرة بقصره وثروته ، بعد أن خرج عنهما لزوجه وطفليه . ثم ان « موريس » هذا كان يحز فى صدره أن يتردد على أبيه من حين الى حين فيرى فيه الوالد الطريد المستبعد ، كما يرى أنه هو نفسه أصبح يتيما فى حياة أبيه ... تلك العوامل كلها غيرت من نظرته الى « شوبان » فلم يعد يرى فى مملكة عبقريته الا شخصا ضئيلا ، أصبح عبئا ثقيلا .

وبينما هذه البغضاء يشتعل أوارها فى صدر « موريس » اذا بالعوامل المتلاحقة تسرع فى اذكائها فمن ذاك أن « جورج صاند » استقدمت اليها فى نوهان احدى قريباتها ، وكانت فتاة متوسطة الحال تدعى « أوجستينا » ، وذلك لتقيم معها . وكانت بارعة الجمال ، أنيقة المظهر ، ففتن بها « موريس » . وكانت شقيقته « صولانج » دائمة الخصومة معه فى كل ما هو من شأن الذوق . فأنكرت عليه ميله الى هذه الفتاة وعابت ذوقه واختياره . وحاولت اكتساب « شوبان » الى صفها فلم تخفق ، وهى الحسناء اللعوب التى بلغت الآن تسعة عشر عاما وهو سن الفتنة والاغراء . يضاف الى ذلك ما امتازت به شخصيتها من دلال ساحر وجمال فاتن . وقد كان هو يتولى تدريس الموسيقى لها . ومن الناحية الأخرى استطاع « موريس » أن يستميل والدته الى جانبه ، تلك التى زاد على فتور علاقتها مع « شوبان » غيرتها عليه من ابنتها الحسناء الفتية التى أصبحت أقرب الى قلبه منها . فانقسمت الأسرة فى أهوائها وميولها الى معسكرين ، كانت الخصومة بينهما فى كل ما يعرض لهما من ألوان الحياة على نحو ما وصفنا .

وكان احدى آثار تلك الحرب الضروس بين المعسكرين فى تلك الأسرة أن « شوبان » كان له فى قصر نوهان خادم يدعى « چون » هو البولونى الوحيد الذى يقوم على خدمته ، ويسمع منه لغة أمته ، فأخذ « موريس » فى مضايقته وأغرى جميع الخدم به . واضطر « شوبان » الى فصله من خدمته ، أحوج ما يكون اليه ، وهو مواطنه المخلص النشيط . وكانت هذه على بساطتها احدى الصدمات العنيفة التى زادت من جراح « شوبان » .

وكل هذه العوامل متجمعة أضيف اليها عامل تاريخى وفنى أفاد منه الأدب والفن بقدر ماكانت الخسارة فيه عظيمة لشوبان . وذلك أن « جورج صاند » وضعت أمرها بين يدى الجمهور فى قصة عنيفة مؤثرة أطلقت عليها اسم «لوكريزيا فلورياني Lucrezia Floriani» وقد رأينا من الخير أن نشرك القارىء معنا فى متعة هذه القصة التى كانت من أمس صحائف التاريخ بحياة « شوبان » والتى كانت من أهم العوامل فى فصم عروة الاتصال بينه وبين « جورج صاند » . ثم أصبحت هذه القصة بعد ذلك مثار الجدل والتأويل ، والأخذ والرد ، بما جعل التعليق عليها قصة أخرى . ونورد اجمالها فيما يلى :

« الأمير شارل رجل نبيل جذاب ، ارستقراطى المظهر ، ولكنه مريض حاد المزاج شديد الغيرة . لقد شغف بحب « لوكريزيا » وأغرم بها . على أنها لم تعد فى سن الفتاة المشرقة ، وانما هى امرأة عافت الدنيا وعافت الحب ، وأصبحت لا تعيش الا من أجل أطفالها . ثم تطور شغف الأمير « شارل » واستحال الى ما يشبه المرض الذى يهدد حياته . لقد أنقذته « لوكريزيا » وبذلت فى سبيله تضحية

فردريك شوپان ، عمل كليزنجر ،

كانت تضاعفها كلما تزايد الخطر المحدق به • وقد عاشت بعض الوقت فى نشوة هذا الحب هانئة بسعادة لا توصف • وسرعان ما تغير وجه الأمور ، وأصبح « شارل » كثير الغيرة عليها فى غير عدالة ، متقلب المزاج فى حدة وسرعة • ولم يعد يطيق رؤية نفر الأصدقاء الذين اعتادوا التردد على تلك السيدة المشهورة • وكثيرا ما تصيبه من أجل ذلك نوبات من الغضب والعصبية واليأس • وها هى « لوكريزيا » تتعذب من هذه الصور ، ويتعبها تكرارها ، فتخور قواها ، وتتأثر صحتها • ولكنها لا تبوح بالشكوى لأحد ، فقد عاهدت نفسها أن تضحى فى سبيل سعادة شارل • وهى تقدر تماما أن استمرار هذه الحال سيقتلها لا محالة ، ويترك أطفالها من بعدها يتامى • ولكنها رغم كل ما تتوقعه من الفواجع ماضية فى اخلاصها ووفائها ••• وتنقضى السنوات على جحيم هذه الحياة المريرة وهى معذبة فى سبيل شارل • وقد فقدت جميع أصدقائها ارضاء لغيرته • كما أنها فقدت حبها له منذ أمد بعيد • وما لبثت أن تخاذلت قواها تخاذلا متواصلا أسلمها للموت ، فقضت نحبها شهيدة آلامها » •

وليس من العسير ، حتى على قارىء عادى ، أن يدرك عند أول استعراض لحوادث هذه القصة أن بطلتها « لوكريزيا » لم تكن غير مؤلفتها « جورج صاند » نفسها • وأن « شارل » لم يكن الا « شوبان » ، وأن الكاتبة لم تصنع غير ما يصنعه كل من يختفى وراء الألفاظ والأسماء ، ليبين بلسان غيره عما قد يخجله الافصاح عنه بلسانه • وهكذا اتخذت هذا الأسلوب العادى لبعض الكتاب

لتفصح عن موقفها من « شوبان » . وبلغ من امعان « جورج صاند » وولدها فى القسوة على « شوبان » وتكدير صفوه أن « موريس » كان كثيرا ما يحمل اليه تجارب طبع هذه القصة بزعم تصحيحها ، وكان يصارحه فى ايلام وايجاع بأن والدته انما تذكر فى قصتها « شارل » وهى تعنى « شوبان » .

وعلى الرغم من أن هذه القصة تنهض دليلا على القسوة والعنف ، والجحود المستتر وراء اسم التضحية ، وهى تنطق بما قصد منها ، وأن الجمهور الذى قرأها لم تخف عليه حقائق الأشخاص المتوارية وراء هذه الأسماء ، كما لم يغب عنه فهم ماورد فيها من الفضائل المفتعلة من تضحية ونبل ووفاء مما أطلق لسان الجميع بذمها والسخط عليها ... على الرغم من ذلك كله فان « جورج صاند » حاولت بكل قواها انكار هذا التفسير فى قصتها ، وأنها ليست تصويرا لعلاقتها بشوبان ، مستدلة على ذلك بأن « شارل » الذى اختارته بطل قصتها لم يكن فنانا انما هو أمير محدود الادراك وليس عبقريا كشوبان العظيم . وليست له رقة هذا الفنان الملائكى ، فوجه التشابه بينهما مفقود . وتحتج « جورج صاند » كذلك بأن « شوبان » كان يقرأ كل يوم أصول هذه القصة ولم يدر بخلده أنه المعنى بها . وانما الحساد والحاقدون من أصدقائهما هم الذين أخرجوا له القصة على هذا النحو ، فأوغروا صدره ، واستغلوا ضعف ذاكرته الذى سببه المرض ، حتى صدق ما فسروه له من وقائع القصة . ولو أنه أعاد قراءتها لأيقن أنه ليس هو المعنى بها .

ولئن كان أحد يحاول أن يقنع نفسه يصدق اللهجة التى اعتذرت بها « جورج صاند » فليس من الناس من يستطيع الاقتناع بأن قصتها اشتملت على موضوع مناسب ، أو أنها اختارت له الوقت الملائم . ولم تخيرت ولدها « موريس » بالذات ليقدم اليه أصول القصة لتصحيحها مع ما سجلته فى رسائلها من أن علاقة ولدها هذا بشوبان أصبحت من السوء فوق ما يحتمل ، ثم هو مريض عليل ... وما شأن « شوبان » البولونى بقصة أدب فرنسى !!!... انها لقصة أساءت فى الواقع الى جميع ما يمكن أن تكون قد قدمته « جورج صاند » من جميل المعاشرة وحسن الصحبة الى شوبان . وليس لمن صنع خيرا أن يقول انى صنعت الخير ...

ومن معاذير « موريس » وقد يكون محقا فيها ، أن هذا الفنان المحب يضع والدته موضع السخرية بغيرته عليها وهى سيدة تجاوزت الثالثة والأربعين من السن . وقد جارت « جورج صاند » ولدها فيما ذهب اليه فى تصوره هذا وقد كتبت عن « شوبان » فى لهجة جمعت السخرية والامتهان حين تقول : انه أصبح شديد الغيرة عليها لا من الرجال وحدهم بل من النساء أيضا وحتى من العجائز والأطفال مما جعل الأمر فوق أن يحتمل ، وأنه كان يصنع ذلك أمام ولديها وأمام الخدم وغيرهم ممن ينظر الى هذه المشاهد المضحكة التى لا تتفق مع سنها ولا تلائم وقارها .

وفى ضجيج هذه الحوادث المتلاحمة التى تتلاطم كالأمواج ، وتقرب يوم انفصال « شوبان » و « جورج صاند » خطبت قريبتها ونزيلة قصرها « أوجستينا » الى « تيودو روسو » أحد أصدقاء

« موريس » الذى رضى عن هذه الخطبة وباركها ، على رغم ما كان بينه وبينها من علاقة كانت مصدر انقسام هذه الأسرة الى معسكرين . وكانت شقيقته « صولانج » قد تزوجت قبيل ذلك من النحات « كليزنجر » وصحبته فى زيارة الى نوهان . وما كادت تعلم نبأ هذه الخطبة حتى استيقظت كراهيتها القديمة لأوجستينا . فاتصلت بخطيبها ، وأبلغته ما كان بين شقيقها وخطيبته من صلة وعلاقة . وكانت نتيجة ذلك أن انفصمت عروة هذه الخطبة .

أما « جورج ساند » فقد ضاقت ذرعا ، وتميزت غيظا من ابنتها ، كما تضايق « موريس » من فعلتها وقد فوتت عليه فرصة التخلص من هذه العلاقة المبهمة . ووقعت على اثر ذلك حوادث دامية فى هذه الأسرة التى سرعان ما انقلب سعدها نحسا ونعيمها بؤسا . ومن ذلك أن حدث شجار عنيف ، تجاوز ما يليق بمثل هذه الأسرة الى ما يقع بين رعاع الناس وسوقتهم . وهكذا دارت المعركة بين « صولانج » وزوجها فى جانب ، و « جورج صاند » وولدها فى الجانب الآخر . وبلغ الأمر بالفريقين أن رفع زوج « صولانج » مطرقة ليهوى بها على رأس « موريس » . فألقت « جورج ساند » بنفسها بين الخصمين فأصيبت بضربة قوية فى صدرها . وأجاب « موريس » على ذلك بتصويب مسدسه الى خصمه « كليزنجر » وكاد يصيب منه مقتلا لولا تدخل الخدم وبعض من شهدوا هذه الموقعة . وقد أسرعت « صولانج » بالكتابة الى « شوبان » فى باريس تصف له هذا الشجار وتستميله الى صفها . وكان لها ما أرادت . فتوقف « شوبان » نتيجة لذلك

عن الكتابة الى « جورج صاند » مدة غير قصيرة . ولما كتب اليها أجابته برسالة تأنيب له وسخرية بخطابه . وقد أدرك « شوبان » أن هذه الرسالة هى النهاية الأخيرة والضربة الفاصلة التى انقطع بها ما كان بينهما من صلة ومودة حتى الأبد . فقد رد على رسالتها تلك بجملة قصيرة : « سأغادر منزلك فى الحال وليس لك عندى بعد ذلك وجود » .

ولقد بر « شوبان » بما أخذ به نفسه فهجر منزلها الى غير عودة . أما هى فقد كان جوابها أن لا جواب ...

وهكذا هجر « شوبان » منزلها فى أحد أيام يوليه عام ١٨٤٧ وسواء أكان على خطأ أم على صواب فلقد أثر هذا الانفصال فى نفسه أعمق تأثير ، فانه بعد عشر سنوات قضاها فى ظلها ، وهو يركن اليها ركون الطفل الى الأم الرءوم ، ويعتمد على بيتها اعتماده على أسرته ، فوجىء اليوم بمواجهة طور جديد من حياته لا قبل له به ، وبفاجعة عاطفية تنوء بها قدرته واصطباره . وقد غدت حالته الصحية تزيد همه وتضاعف بؤسه وتضعف مقاومته . وكان أبلغ وصف قيل فى هذا الصدد : « انه خرج من بيت جورج صاند ليستقبل نعشه » ...

أفول النجم

من آيات العبقرية ومعجزاتها وفضائلها أنها لا تخذل صاحبها ، حتى فى ساعات محنته الأليمة . بل ربما كانت تلك الساعات من بواعث أضوائها وعوامل اثارتها . وهكذا كان الشأن مع « شوبان » فلم تخذله عبقريته وهو يرزح تحت أعباء المحن الجسمية فى تلك السنوات الأخيرة . وربما كانت تلك الأيام هى التى أمدته بروح نقية لاخراج أبدع المؤلفات وأروع المبتكرات .

لقد كان « شوبان » ينفس عن صدره المحزون وآلامه المكبوتة حين يترجم عن مشاعره ويجليها بثمار هذه العبقرية . وبقدر ما أفاد العالم واقتبس التاريخ من هذه الثروة الفنية الطائلة ، فقد كان لتلك الثمار كثير من الفضل عليه وجميل الأثر عنده فيما خففت عنه من الضائقة الزوجية والغربة عن الأهل والوطن . ففى عامى ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ أخرج ثلاث مقطوعات مازوركة « مصنف رقم ٥٩ » ومقطوعة بولونيز فانتازى « مصنف رقم ٦١ » ومقطوعتى نوكتون « مصنف رقم ٦٣ » وثلاثا أخر من نوع الفالس « مصنف رقم ٦٤ » وأخيرا سوناتة للكمان الجهير (الفيولنسل) والبيان ، وكان ذلك آخر ما طبع له فى حياته . وقلما أتيح له أن يتم مقطوعة بدأها بعد أن هجر « جورج صاند » .

ثم توالى ضعف صحته واطراد علته حتى لم يعد يقوى على

فردريك شوبان (فى عام ١٨٤٧)

صعود درج السلم الا بمشقة وألم • وفى صيف عام ١٨٤٧ تحسنت صحته قليلا • وما لبث أن دهمه الشتاء التالى ، فعاودته العلة ولكنه استطاع أن يستجمع قواه ليقيم آخر حفل له فى باريس ، بصالة « پلايل » فى السادس عشر من فبراير عام ١٨٤٨ • وعلى الرغم من فداحة قيمة تذاكر هذا الحفل فلم يكن لأحد سبيل الى الحصول عليها الا بكبير وساطة وعظيم نفوذ • ولقد أظهر « شوبان » فى هذا الحفل براعة استولى بها على ألباب السامعين • وكان هم كل فرد من أولئك الألوف أن يتاح له التعبير للفنان عن مدى اجلاله لعظمة فنه وسحر موسيقاه • وبين يدينا من وثائق هذا الحفل ما نشرته صحيفة « غازيت موزيكال » حيث قالت :

« وفضلا عن ازدحام المقاعد بطبقة السيدات الأرستقراطيات ، فقد اشتمل الحفل كذلك على أرقى طبقة من الفنانين والهواة الذين توافدوا مسرعين اليه لينعموا بهذه السعادة النادرة • ولكن أي نجاح وأي سحر وأية عبقرية معجزة !!! انه لمن الميسور أن نصف شيئا مما لقيه الفنان من الترحيب البالغ والاعجاب الفائق وعظيم تأثر الجمهور بسحر الموسيقى • ولكن لن يكون سهلا على أحد مهما بلغ من قدرة التعبير أن يأتى بوصف أو تحليل لفن هذا العبقرى • فكل ما يمكن أن يقال عنه انه لايعرف له نظير فى هذا العالم الأرضى » •

وهذه المظاهر التكريمية من شعب باريس على اختلاف طبقاته كانت أنجع بلسم لجراح « شوبان » الداميـة التى استهدف لها بتلك المدينة فى السنوات الأخيرة •

وبعد انقضاء أسبوع على تاريخ هذا الحفل اندلع لهيب الثورة فى فرنسا ، وكان من نتائجها تنازل الملك « لويس فيليب » عن عرشه فى الثانى والعشرين من شهر فبراير • ومن غريب المصادفات أن تتفق بالتحديد مدة حكم هذا الملك مع مدة اقامة « شوبان » فى باريس • وكأنما شاء القدر أن يتنازل ملكان عن عرشهما بها فى وقت واحد • هذا عن عرش ملكه وذاك عن عرش فنه • فقد نصح الأصدقاء لشوبان بمغادرة باريس طلبا للراحة والاستجمام ، كما أن تلميذته « چين ستيرلنج » وهى موسيقية موهوبة من أثرياء الطبقة الراقية فى اسكتلندا قد أشارت عليه بالسفر الى انجلترا راجية له أن يجد بها ما يهون من شدته ويخفف من علته • فأذعن لنصيحتها واعتزم السفر الى تلك البلاد •

وقبل موعد السفر بنحو شهر أقبلت اليه سيدة كان كثيرا ما يلبى دعوتها ويحضر مجتمعاتها قبل اعتلال صحته ، ورغبت اليه فى رجاء ملح أن يزور قصرها ذلك المساء • وقد أبى قبول الدعوة فى بداية الأمر ، اذ كان قد تعود فى السنوات الأخيرة الانقطاع عن أمثال هذه المجتمعات • ولكنه أمام الالحاح العنيف والرغبة المتكررة لم ير بدا من تلبيتها •

وضاق المكان بالمدعوين قبل حضور « شوبان » فلم يكن لهم من حديث سوى هذا العبقرى الذى شغل بسحر فنه الأوساط كلها • ونهضت احدى المدعوات تشرح فى افاضة واسهاب فضل موسيقى « شوبان » على قلم « چورج صاند » مبينة كيف كانت ابتكاراته وابداعاته الهاما لها فى مؤلفاتها • وكانت بالقصر سيدة

قد خلت الى نفسها فى غرفة جانبية ، وهى بمسمع من أحاديث المدعوين دون أن يتبينها أحد • لقد علت وجهها حمرة ملتهبة ، وثار فيها انفعال نفسى ، وترقرق الدمع فى عينيها عندما سمعت حكم المرأة على المرأة •

وبعد أن قدم « شوبان » وانتظم عقد المدعوين ، وأخذوا يتنقلون على ألوان من الحديث ، وساد المكان هرج ومرج ، غادرت السيدة المختبئة غرفتها ، ولم يكن يفطن اليها أحد غير صاحبة القصر • ومشت فى خطوات وئيدة متعثرة قاصدة الى « شوبان » • وهمست باسمه همسة لم يسمعها سواه : « فردريك » • فالتفت الفنان اليها ليرى من تكون هذه التى تناجيه باسمه الصميم • اى والله انها « جورج صاند » بعينها تقف الى جانبه محاولة فى ندم أن تستغفره • فصوب اليها الفنان نظرات باهتة صادرة عن جسم رقيق ضامر ، وروح سماوية عالية • وبعد أن مرت لحظة رهيبة كانت خلالها تنتظر حكمه عليها ، نأى بجانبه عنها وغادر الجمع فى صمت وسكون •••

وفى الحادى والعشرين من ابريل ومن ذلك العام نفسه غادر « شوبان » باريس بعد توديع حار من أصدقائه وتلاميذه ، حتى اذا وصل الى لندن كانت اقامته بها فى شارع دوفر • وكانت شهرته قد سبقته الى تلك البلاد وقد أعجبت المجتمعات والهيئات بمؤلفاته ، وأغرموا بالاستماع الى ألحانه • لذا كان يتمتع فى كل مكان بأوفى نصيب من التكريم والتبجيل • وقد رحب به زملاؤه من أعلام الموسيقى فى انجلترا ممن سبق لهم معرفته والاستماع اليه

فى باريس من أمثال أوسبورن (Osborne) وبينيدكت (Benedict) وسلوپر (Sloper) وبرنلى ريشاردس (Brinley Richards) وغيرهم • وعن هذا الطريق الفنى اتصل بالمجتمع مرة أخرى ، وقام بمزاولة العزف على البيـــان • وكان له من غرامه بالموسيقى وتفانيه فيها ما يشغله عن « جورج صاند » التى ما يزال يذكرها ويحن اليها رغم ما سببت له من الكوارث النفسية والآلام القلبيـــة ، فلم تكن « جورج صـــاند » بالشخصية العـــادية بل كانت ذات عقليـــة جبـــارة ، وتفكير بعيد ، وخيال ليس له مـــدى ينتهى اليـــه • ولم لا يذكرها وقد أذاقته فى ظل حنانها أياما سعيدة قلما يعرف المرء لها نظيرا الا فى القصص والأحلام • فلم يكن فى استطاعته أن يطوى فؤاده على نسيان تلك السعادة وجحودها ، وان كان عقله قد حـــكم له بأن تلك المرأة لا تستحق من أنفاسه المحترقة زفرة واحدة •

وكان يقيم فى لندن اذ ذاك جاليـــة بولونية من المهـــاجرين والمستبعدين السياسيين ، ومن بينهم ذوو مكانات وأقدار • وما كاد أولئك البولونيون يعلمون بوجود مواطنهم العبقرى بين ظهرانيهم حتى أجمعوا على تكريمه ، وأقاموا لذلك حفلا شائقا اشترك فيه مايربى على الأربعين بولونيا من ذوى المكانة وكبار الشخصيات • وبعد أن خلعوا عليـــه حلل التكريم من روائع الخطب وآيات البيان فى تمجيد فنه والاشادة بوطنيته نهض « شوبان » ووجه اليهم هذه الكلمة :

« مواطنى الأحباء !!! ان ما وجهتم الىّ من كلمات العطف

فردريك شوپان ! صورة زيتية بمتحف اللوفر بباريس !

والحب قد أثر فى قلبى تأثيرا عميقا يفوق مدى كل تعبير . وكم كان بودى أن أؤدى بدورى واجب الشكر اليكم بأسلوب الخطابة الساحر الذى طرب له سمعى ، الا أن استعدادى فى ذلك لا يسعفنى لأعبر عما يجيش بصدرى من الأحاسيس . لذلك فانى أدعوكم الى مسكنى المتواضع فلعلى أستطيع أن أعبر لكم عن شكرى على أوتار البيان » .

ولقد استقبل الجميع هذه الدعوة بعاصفة من الرضا . وتبعوه على الأثر ... وعلى الرغم من أن « شوبان » كان مجهدا فى ذلك اليوم ، وقد أثرت فيه الانفعالات المتتابعة فقد استجمع قواه كلها وعزف ، ثم عزف . وكلما أوشك على الانتهاء ألح عليه الجميع فى معاودة البدء . ومازال على هذه الحال حتى الثانية بعد منتصف الليل .

وقد كان لأنغام مقطوعات « المازوركة » و « البالاد » و « البولونيز » و « الابتكارات » التى صيغت ألحانها فى طابع بولونى ، وتصوير آلام وآمال وطنية قومية ... كل ذلك كان له أبلغ الأثر فى نفوسهم حتى أحس أولئك المبعدون عن أوطانهم منذ سبعة عشر عاما فى تلك الأنغام ذكريات الوطن المحبوب . وكأن موسيقى « شوبان » نقلت اليهم الوطن كله مصورا فى ألحان ونغمات .

وفى مناسبة أخرى قامت احدى النبيلات بتقديم « شوبان » الى الملكة ڤيكتوريا فعزف فى بلاطها ونال الاعجاب الذى جعل صالونات الأشراف والنبلاء تتلقفه وتتبارى فى دعوته لاقامة حفلاتهم الخاصة .

على أننا فى مقام البحث العلمى لانرى مندوحة من الاشارة الى رأى « شوبان » وحكمه على مـدى موسيقية من لقيهم من أبناء هـذا الشعب • فمن ذلك ماكتبـه الى أسرته فى أغسطس عام ١٨٤٨ على أثر اختلافه الى هذه الحفلات قال :

« بعد حفلة المساء كتب الكثير من الصحف نقدا طيبا عنى عدا جريدة التيمس فقد نشر فيها المـدعو « دافيسون » رأيه فى شخصى وهو أننى صورة رديئة من « مندلسون » • ولعله تخيل أو قيل له اننى خصم منافس لمندلسون » •

وكتب الفنان أيضا الى صديقه جرزيمالا يقول :

« ان سيدة ثرية من فضليات السيدات قضيت فى قصرها بضعة أيام ، وتعد هنا موسيقية عظيمة • وقد حدث أن أمسكت ذات يوم بآلة كيرية (موسيقى اليـد) فأخـذت تعزف عليها فى وقار متزايد أقبح النغمات • وانه ليخيل لى أن كل مخلوق هنا به مس من الجنون • فهذه سيدة أخرى عرضت علىّ مجموعة من الصور التى تحتفظ بها ، وأرادت أن تبرهن لى على عظيم قيمتها فقالت ان جلالة الملكة قد نظرت الى هذه المجموعة وأنا الى جانبها • وقالت لى ثالثة انها ابنة العمة الثالثة عشرة لماريا ستيوارت • وغنت لى رابعة أغنية كانت مزيجا فى ألحانهـا من الانجليزية والفرنسية بمصاحبة البيان ، وهى تقسم لى وتبالغ فى تأكيدها أنهـا أغنية انجليزية صميمة • ثم انظر الى أميرة « پارما » وهى تخبرنى فى اعتزاز أن احدى السيدات أدت بصفير فمها مقطوعة بمصاحبة

القيثـارة . أما رأي هؤلاء الذين زعموا أنهم يعرفون مؤلفاتي فقد تقدمت الىّ احداهن قائلة : أرجو أن تعزف لى تنهداتك الثانية فانى أحب الأجراس التى فيها . وكل ثنائهم وغاية ملاحظاتهم تنتهى بتشبيه موسيقاى بالماء . وكل تعليق على أية مقطوعة بعد عزفها يعقبون عليه بقولهم « مثل الماء » ، يعنون بذلك أن النغمات تنساب هينة مثل الماء . فما عزفت أمام سيدة انجليزية الا كان هذا المـاء آية اعجابهـا وغاية حـكمها . انه شعب غريب الأطوار . ساعده الله » .

ولقد أثر على صحته طول السهر المتواصل وما كان يقيمه من حفلات يقضى فيها الوقت الطويل الى ما بعد منتصف الليل . وزاد ذلك فى علته حتى أصيب بأرق شديد . ولما ساءت صحته نصحت له تلميذته « چين ستيرلنج » بالسفر الى أسرتها باسكتلندا ليستجم بها . وقد سـافر اليها بعد أن وجهت اليه الأسرة دعوة لزيارتهـا . وقبل سفره ببضعة أيام بعث برسـالة الى صديقـه « جرزيمالا » جاء فيها :

« لن أكون أكثر حزنا بعد اليوم مما أعانيه الآن فقد فقدت السعادة الحقيقية منذ زمن طويل ، اننى لا أكاد أحس شيئا من الوجود حولى ، وأعيش على مرير الصبر ، انتظارا للنهـاية المحتومة . وسأسافر فى الأسبوع القادم الى اسكتلندا حيث أنزل بها ضيفا على اللورد « توربشين » صهر صديقتى الآنسة « چين ستيرلنج » . لقد عفت حياة التنقل من مجتمع الى غيره ومن حفل الى سواه . وانى لا أطيق بقائى متنقلا من مكان الى آخر شـأن الموسيقى

المتجول • لقد أصبحت أمقت هذه الفوضى فى المعيشة التى لاتقوى صحتى على احتمالهـا • وقد اعتزمت البقاء فى اسكتلندا الى التاسع والعشرين من أغسطس حيث أعود بعدها الى منشستر فأشترك فى حفل عام بها ، على أن أنفرد فيه بالعزف مرتين دون مصاحبة الفرقة • وسأتقاضى عن ذلك ستين جنيها » •

وكان لمناخ سكتلندا الرطب تأثير أساء الى صحته • كما أن الضباب المتراكم دون انقطاع فى أرجائها سبب له انقباضا روحيا ، وأيقظ فى نفسه أفكارا قاتمة وأشـباحا مظلمة من نوع ما أقض مضجعه فى السنوات الغابرة • وقد تجلى أثر هذا الوجوم والانقباض فيما أخرجه من مؤلفات خلال هـذه الفترة • وكانت اقامته مع اللورد « توربشين » فى جهة نائية عن العمران • وقد كتب منها رسالة الى « جرزيمالا » يقول :

« انك لا ترى هنا بريدا ، ولا سكة حديدية ، ولا عربة حتى للنزهـة ، ولا تجد قاربا ، ولا تسمع نباح كلب • كل شىء هنا جدب مقفر » •

ولما عاد من رحلته الى لندن أخذت حالته الصحية تزداد انحدارا حتى كتب رسالة منها فى منتصف أكتوبر قال فى مطلعها :

« منذ وصولى الى لندن قضيت ثمانية عشر يوما تنتابنى نوبة قاسية من الزكام الحاد ، مصحوبة بألم فى الرأس ، وعسر فى التنفس ، مع مالايمكن وصفه من أعراض سيئة • والطبيب الذى يزورنى يوميا سمح لى بالأمس أن أشترك فى الحفل البولونى • وبعـد القيام

بدورى فيه أسرعت بالعودة الى المنزل • ولكن الليل مضى دون أن تغتمض عيناى • فمع ما أشكوه من السعال أصابنى ضيق فى التنفس وألم شديد فى الرأس ••• » •

ولم تكن لشوبان طاقة بمقاومة الحياة فى هذه البلاد أكثر مما أقام بها ، فاعتزم العودة الى باريس فى أوائل عام ١٨٤٩ وقد بلغت حالته الصحية أسوأ ما يمكن أن تصل اليه • ولكن مما يثير العجب فى ذلك هو أن « شوبان » المريض العليل الذى تتمادى به الأسقام وتلح عليه الأدواء لا يزال هو الفنان الأنيق الذى لا يقبل أن يعود الى باريس قبل أن يصدر تعليماته بشأن اعداد مسكنه بها ، على نحو ماكان يصنع وهو فى نضارة الصبا والشباب • وهاهو يكتب لصديقه فى ذلك يقول :

« اطلب الى « پلايل » أن يرسل الىّ بيانا كبيرا فى مساء الخميس • وأفهمه أن يغطيه بمفرش • وتول أنت شراء باقة من زهر البنفسج حتى تجعل أريج البهو عطرا • انى أريد أن أملأ جو حجراتى شعرا ، وألا يفارقنى الجمال فى غرفة نومى التى يخالجنى شعور عميق بأننى عما قريب سأنام فيها طويلا » •

وعندما عاد الى باريس ألزمته حالته الصحية التخلى عما كان يقوم به من دروس لتلاميذه ، وهى التى تكون الجزء الأهم من ايراده •

وفى بداية صيف هذا العام انتقل من مسكنه فى « ميدان أورليان » الى مسكن آخر من الدور الثانى بشارع « دى شايو »

وهو فى موقع أنيق يطل على منظر من مناظر باريس الجميلة .

ولما كان دخله فى هذا العام الأليم لا ينهض بأعباء نفقاته فقد كان أصدقاؤه برة أوفياء فتعاونوا على تغطية هذه النفقات دون علم منه . وما كادت تلميذته « چين ستيرلنج » تعلم مقدار ماوصلت اليه حالته المالية من السوء حتى أرسلت الى أصدقائه مبلغ عشرين ألف فرنك لسداد العجز فى نفقاته مشترطة عليهم ألا يظهروه على شيء من ذلك ، محافظة على شعوره أن يجرح وروحه أن تتألم ، فحسبه مابه من آلام ممضة وسقام مضنية . وكذلك كانت احدى النبيلات البولونيات تقوم بسداد نصف أجر المسكن الذى لم يكن يعلم مقداره على حقيقته .

وحدث أن توفى فجأة الدكتور « مولين » طبيب « شوبان » الذى طالما سهر على علته ، وكان يرجع اليه الفضل فى تخفيف وطأة المرض عنه وتهوين خطره عليه طوال تلك السنين فكان لوفاته فى نفس « شوبان » أثر زاد آلامه وضاعف أسقامه .

واستحكمت أزمته النفسية وعلته الجسدية حتى لم يكن يستطيع التنقل من مكان الى آخر دون معاونة أصدقائه . وكان أكثرهم ملازمة وأصدقهم معاونة للفنان تلميذه « جوتمان » فقد كان فى ساعديه القويين ملاذ الرحمة والحنان لأستاذه « شوبان » ، الذى كان يجد راحته فى ألا يتعب تلميذه تخفيفا عنه واشفاقا عليه فقد كان دائم السؤال عنه فى كل لحظة .

وأحس الفنان وهو على فراش مرضه فى شهر يونيه الهاما خفيا

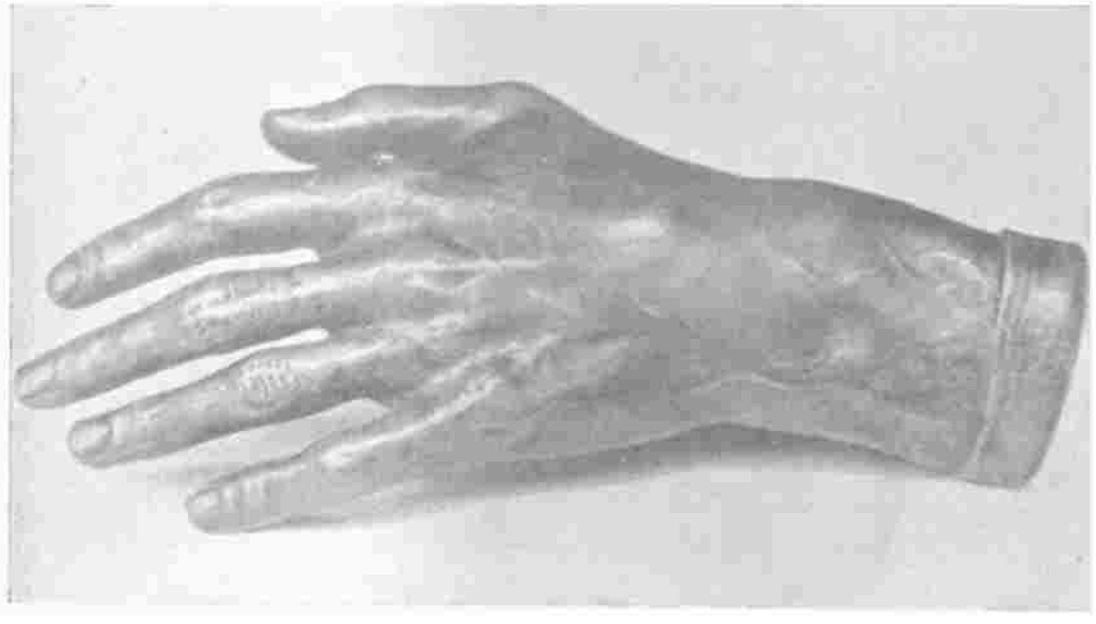

يد فردريك شوپان

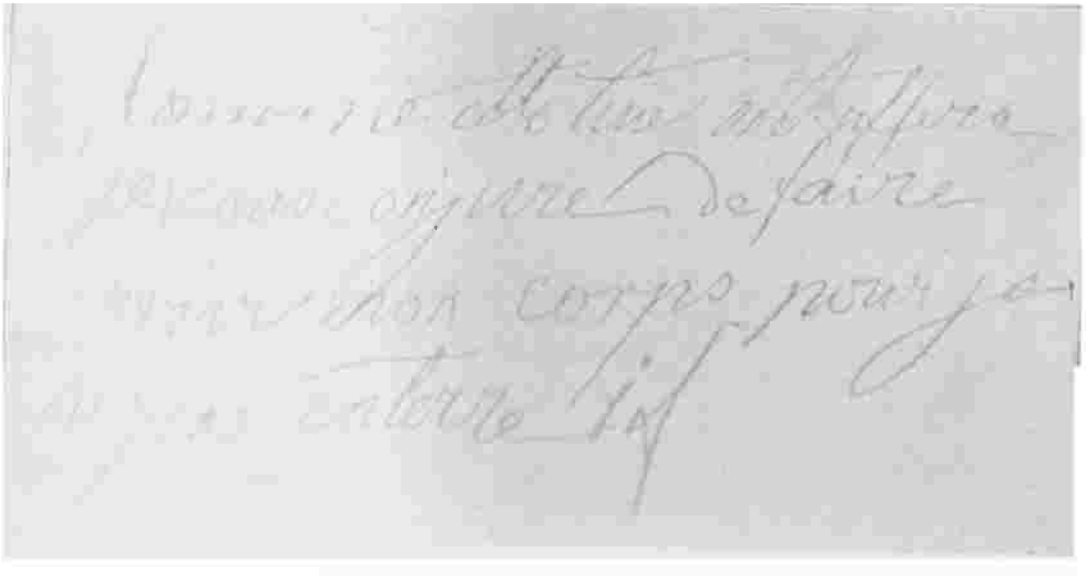

آخر ماخطه انامل شوپان

يدفعه الى الكتابة لشقيقته الكبرى « لويزا » يطلب اليها سرعة الحضور ، فهو يشعر بأنها خير طبيب له • وقد كانت عند حسن ظن شقيقها فقدمت اليه مع قرينها وابنتها • وقد وجدت أن أسوأ ما كانت تخشاه هو الذى حدث بالفعل ، وأن انحلال صحة شقيقها خلال هذا الصيف أخذ فى التزايد ، فانهارت قواه ولم يعد يقوى على عزف أو تأليف •

ولم تدعه الصدمات النفسية حتى فى هذه المرحلة الأليمة فقد اتصل به أن صـديقه « تيتوس » يعتزم الحضور الى حمامات « أوستند » ولكنه لايستطيع دخول باريس لكونه بولونيا مالم تسمح له السفارة الروسية فى تلك المدينة بذلك • ولما لم تفعل حاول « شوبان » أن ينتقل هو ليري صديقه وزميله القديم ، فحال الأطباء دون ذلك • فكتب اليه فى العشرين من أغسطس يبلغه تألمه لحرمانه من رؤيته ، وان كان لا يزال يرجو أن تذلل العقبات فيراه فى باريس • وختم تلك الرسالة بقوله :

« أنافى غرفتى أشرب الماء المعدنى ، ولكنى أعتقد أن وجودك الى جانبى أجدى علىّ من جميع هذه العقاقير •

صديقك حتى الموت

فردريك »

وقد بذلت محاولات فى أن يلتقى الصديقـان ولكنها باءت بالفشل • وشاءت الأقدار أن يحرم « شوبان » حتى من توديع أوفى أصدقائه وأقربهم الى قلبه •

ثم ألحت العلة ، وتزايدت ، وتمادت حتى أعجزته عن النهوض الا بمساعدة شقيقته « لويزا » وتلميذه « جوتمان » • وكذلك سطرت الأقدار فى سجل الوفاء أسماء نفر من أصدقائه الخلصاء من بينهم النبيلة شارتوزسكا (Czartoryska) وتلميذته اليزا چاڤار (Elise Gavard) وشقيقها « شارل چاڤار » الذى أخذ على عاتقه مداومة الحضور الى الفنان حيث كانت تسرع به العلة الى دور الاحتضار فيقرأ له فى قاموس الفلسفة لڤولتير ، وكان « شوبان » يؤثره على ماعداه من الكتب •

وولت الأيام ، وتعاقبت الليالى ، حتى أقبل شهر أكتوبر وكان « شوبان » فى ذلك الحين قد وصل الى حالة لا يستطيع فيها أن ينهض للجلوس من فراشه وحده • لقد أدرك الجميع أن العبقرية الجبارة قد أخذت تتوارى شيئا فشيئا ، وأن السراج المضىء أخذ يخفت رويدا رويدا ، وأنه لم يبق للموسيقار العظيم بين ظهرانيهم الا أياما معدودات • وأخذ أصدقاؤه وتلاميذه الأوفياء يفدون من باريس وخارجها الى منزله صباح مساء ليكونوا الى جانبه فى ساعاته الأخيرة •

واستدعى اليه الأب يلوڤيكى (Jelowicki) القسيس البولونى الذى أخذ يتردد عليه كل يوم دون انقطاع • وفى اليوم الثالث عشر من أكتوبر تمت المراسيم الدينية • وفى نهايتها كانت كلمة « شوبان » الى القسس « أشكرك ياصديقى » •

وكانت تنتابه نوبات حادة تتركه فى غيبوبة عمن حوله • ولئن

فردريك شوپان (على فراش الموت)

كان ما يزال محتفظا بقواه العقلية فى ساعاته الأخيرة فان جسمه الذى أضناه السقم وبرته العلة أصبح ناحلا ضعيفا هزيلا ، لا يقوى على الحركة ولا يستطيع الكلام • وأصبح كل ما يتعجله أصدقاؤه المحيطون بفراشه أن يلفظ النفس الأخير ليستريح من أوصاب المرض ، ومصائب الدنيا ، وآلام الحياة •

وهنا يأبى القدر الا أن يرسل اليه من الموسيقى رسولا يبعث فيه خفقات الحياة مرة أخرى • ففى يوم الأحد الخامس عشر من شهر أكتوبر وقد يئس الجميع من أمره مرتقبين له النهاية المحتومة من لحظة الى أخرى قدمت النبيلة دلفين پوتوكا (Delphine Potocka) من مدينة « نيس » وكانت من أصدقائه القدامى ، كما أنها من مشاهير المغنيات • فما كاد يشعر بوجودها حتى صحا من غيبوبته فأومأ اليها أن تغنى • فأحضرت آلة البيان من الغرفة المجاورة ، وأخذت ترسل الغناء فى أنين تحبسه العبرات بأنشودة « الى العذراء المقدسة » للموسيقار « ستراديللا » وكان أداؤها بالغ التأثير ، فأخلد الجميع الى سكون رهيب ، رغبة منهم ألا يزعجوا أمير النغم فى ساعة احتضاره ، وأن يدعوا له الفرصة الدامعة لتوديع حبيبته الموسيقى التى شاء القدر أن تكون رسول وداعه الى لحده ، كما كانت بشير قدومه الى مهده • وكان صوت النبيلة ملائكيا أطلق عيون الجميع بالعبرات الدامية ، ونفذ الى قلب الفنان الذى استعاد غناءها ، وقد بدا فى غيبوبة النهاية وأحلام الرحلة الأبدية • وكان جسده الهامد قد مات ، وبقيت روحه أبية على الموت لا تريد

أن تتلاشى ما دامت الموسيقى حبيبته ترسل أنغامها الى سمعه ... ثم سكت الغناء فجأة ، وكأن المشهد الأخير قد انتهى . فأبعد البيان عن الحجرة فى جلجلة من العويل والبكاء . وتقدم القسيس الى سرير المحتضر ليقوم بطقوسه الدينية .

ولكن يشاء الله ألا يكون هذا يومه الأخير . فقد أمضى ليله ، ثم استقبل اليوم التالى فى صحوة غير مرتقبة ، الا أنها كانت صحوة الموت . ثم طلب صديقه القسيس . على أنه فقد النطق بعد ذلك ، وان كانت أنفاسه ظلت تتردد فى ضعف وخفوت .

ومن دعابات القدر المحزنة أن تقدم فى هذه اللحظة المريرة مندوبة « چورج ساند » المشغولة باخراج احدى مسرحياتها للاستفسار عن صحة المريض . ولكن لم يجد أصدقاؤه ما يستدعى ازعاجه بذلك فى هذه اللحظات القدسية .

ولم يعد من دلائل الحياة فى « شوبان » الا ما به من نبض ضعيف . وعاده طبيبان فى مساء ذلك اليوم . وقد بدا على وجهه أثر الاختناق ، وفقد جميع حواسه ومشاعره . ولما سأله الطبيب عما اذا كان يشكو ألما أجاب فى نبرات واهية قائلا «Plus» (أى كلا) . وكانت هذه هى كلمته الأخيرة التى زفر بعدها زفرة عميقة أسلم عقبها جفنيه لنومة الأبد . وذلك فى الساعة الثالثة من صبيحة يوم الثلاثاء السابع عشر من أكتوبر عام ١٨٤٩ .

وما هى الا ارتدادة الطرف حتى كانت الحجرة قد ازدحمت بجمهور من أصدقائه الذين كانوا موزعين بين الغرف الأخرى

فردريك شوپان تظله الموسيقى (نحت تعبيرى لشيمانوفسكى)

فى انتظار مصـيره • وقد أخـذوا يستنزفون من مآقيهم الدموع الغزيرة وهم يودعون صديقهم الوداع الذى لا لقاء بعده •

وكانت وصية « شوبان » أن ينتزع قلبه بعد وفاته ليدفن فى وارسو ، وأن تدفن رفاته بمقابر الأب « لاشيز » بباريس الى جوار صديقه الموسيقار « بلليني » الايطالى ، وكانت الصـداقة بينهما قد توثقت منذ عام ١٨٣٣ الى أن توفى « بلليني » فى الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٥

وهكذا أراد « شوبان » أن يترك للانسانية مع تراثه الموسيقى الخالد تركة من الوفاء للوطن وللصديق • فتوارى فى وطنه بقلبه ، والى جانب صديقه برفاته •

كما كان من وصيته أيضا ألا يطبع من مؤلفـاته أى تصنيف لم يكن قد أتمه • ثم يبلغ به وفاؤه لعقيدته فى « موتسارت » أن يمتد ذلك الى ما بعد موته ، فقد أوصى بأن يكون القداس الذى يؤدى فى الاحتفال بدفنه هو « قداس الحداد » لموتسارت •

ولم تتم مراسيم الاحتفال بمواراة جثمانه الا فى الثلاثين من أكتوبر عام ١٨٤٩ أي بعد وفاته بثلاثة عشر يوما • ويرجع هذا الى أنه حتى ذلك التاريخ لم يكن مرخصا للسيدات بدخول كنيسة « مادلين » التى ستقام بها مراسيم الجناز • وقد استغرق الحصول على الترخيص كل تلك المدة • فكانت فرصة أتاحت لجميع أصدقائه ولأعلام الموسيقى والغناء من رجال وسيدات أن يشهدوا هـذا التوديع الرائع • كما اشتركت فيه فرق كثيرة من المعاهد الموسيقية

وفرق غنائية خاصة من المرتلين • وألقى فى هـذا الحفل الرهيب بعض مقطوعات الراحل ، من قداس موتسارت ، ومقطوعات أخرى لبيتهوفن •

وفى مقبرة « لاشيز » توارى جثمانه فى مقره الأخير • وهناك تقدم أحد الأصدقاء فنثر على قبره تراب أرض بولونيا ، وهو ذلك التراب الذى كانت وارسو قد قدمته فى كأس فضية الى ابنها البار يوم رحيله عنها تذكارا لأرض الوطن الذى وهبه قلبه والذى نقل كوصيته الى بولونيا حيث دفن بكنيسة الصليب المقدس فى وارسو •

وهكذا أنفـذت الأقدار حكمها ، وقال القضـاء كلمتـه فى « شوبان » • فحبس الموت رفاته فى باريس ، وقلبه فى وارسو • أما موسيقاه فقـد أبت الا أن تنطلق الى كل مكان لتخـلد عبر الأجيال والأزمان •

قبر فردريك شوپان بمدافن الاب لاشيز بباريس حيث ووري جثمانه

لوحة تذكارية فى كنيسة الصليب المقدس بوارسو حيث
دفن قلب شوبان